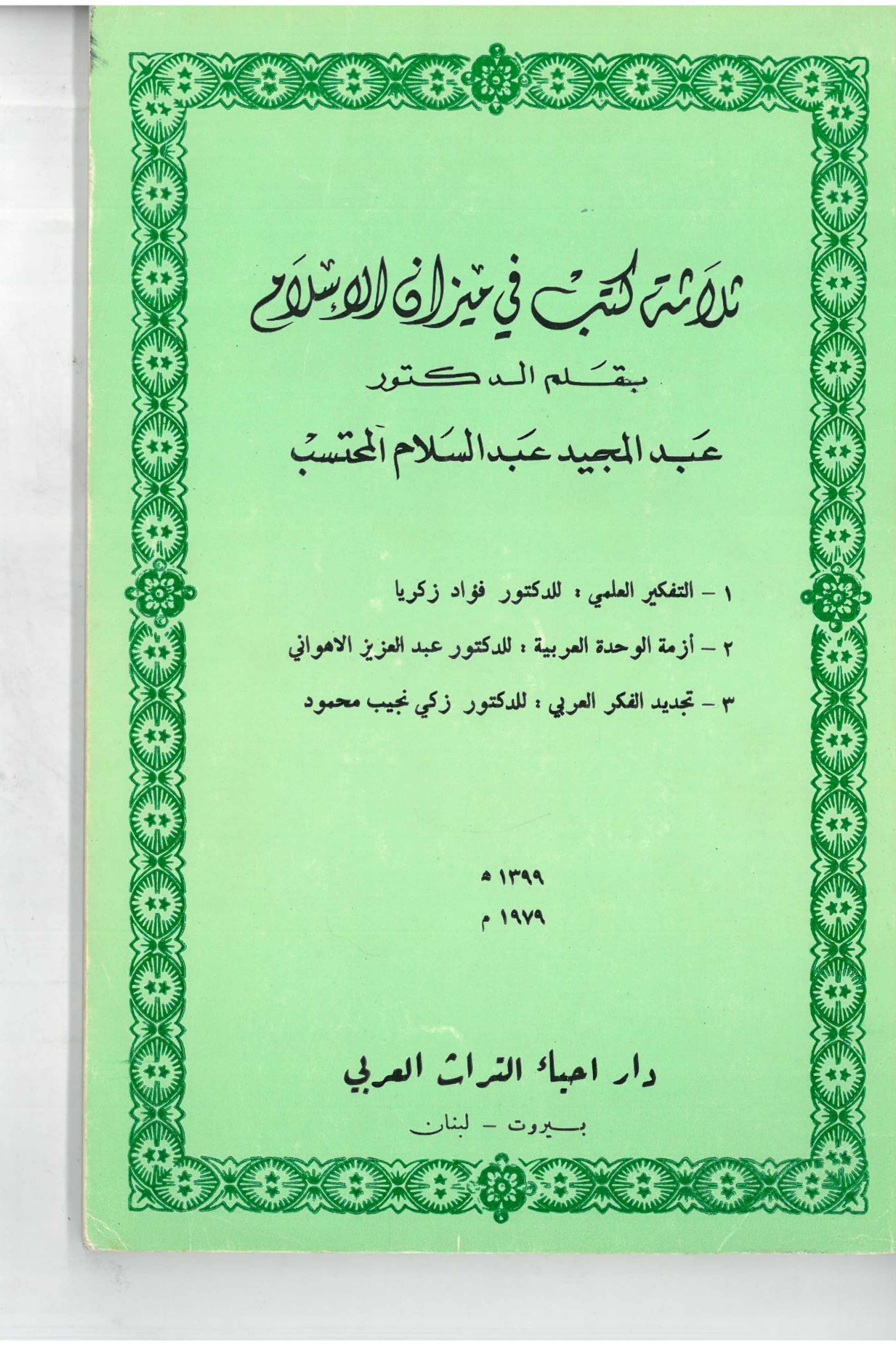


ثلاثة كتب في ميزان الإسلام

بقلم الدكتور

عبد المجيد عبد السلام المحتسب

١ - التفكير العلمي : للدكتور فؤاد زكريا

٢ - أزمة الوحدة العربية : للدكتور عبد العزيز الاهواني

٣ - تجديد الفكر العربي : للدكتور زكي نجيب محمود

١٣٩٩ هـ

١٩٧٩ م

دار احياء التراث العربي

بيروت - لبنان

ثلاثة كتب في ميزان الإسلام

بقلم الدكتور
عبد المجيد عبد السلام المحتسب

١ ــ التفكير العلمي : للدكتور فؤاد زكريا

٢ ــ ازمة الوحدة العربية : للدكتور عبد العزيز الاهواني

٣ ــ تجديد الفكر العربي : للدكتور زكي نجيب محمود

١٣٩٩ هـ
١٩٧٩ م

دار احياء التراث العربي

بيروت ـ لبنان



مقـــدمة

الحمد لله الذي كرم الانسان بالعقل ، وخلقه في أحسن تقويم . والصلاة والسلام على محمد خاتم الانبياء والمرسلين . ورضي الله سبحانه وتعالى عن أصحابه الذين جاهدوا في سبيل الله حق الجهاد ، ومن تبعهم باحسان الى قيام الساعة .

وبعد ، فهذه صفحات كتبتها في ثلاثة كتب كتبها معاصرون :

الكتاب الاول : التفكير العلمي للدكتور فؤاد زكريا

والكتاب الثاني : أزمة الوحدة العربية للدكتور عبد العزيز الاهواني

والكتاب الثالث : تجديد الفكر العربي للدكتور زكي نجيب محمود

والافكار الواردة في هذه الكتب وزنتها بميزان الاسلام ، ونقضت ما يجـب أن ينقض منها بأفكار الاســـلام .

والله أسأل أن يوفقنا الى السداد في القول والعمل .

عمان في الثامن عشر من رجب سنة ١٣٩٨ هـ ــ الموافق ٢٤ ــ ٦ ــ ١٩٧٨ م

عبد المجيد عبد السلام المحتسب

نظرات في كتاب

"التفكير العلمي"

للدكتور

فـؤاد زكريا

"التفكير العلمي"

هذا كتاب الفه فؤاد زكريا ونشره المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب في الكويت ضمن سلسلة « عالم المعرفة » في شهري ربيع الاول وربيع الاخر عام ١٣٩٨هـ الموافــق شهر اذار عام ١٩٧٨ .

وهذا الكتاب يشتمل على مقدمة وفصول سبعة وخاتمة :

ففي المقدمة يحدد المؤلف معنى التفكير العلمي أو العقلية العلمية

موضوع الكتاب كما يراه ويقصده . ويعتقد المؤلف أن موضوع التفكير العلمي هو موضوع الساعة في العالم العربي . وهو يلوم أولئك الذين يقاومون العلم أشد مقاومة في العالم العربي ويستخفون بالعلم الحديث أو يحاربونه . وان اية محاولة لاعتراض طريق التفكير العلمي ، في عصرنا الحاضر ، انما هي معركة خاسرة . والمؤلف يعد كتابه هذا محاولة لاقناع العقول ، في عالمنا العربي ، بأن أشياء كثيرة ستفوتنا لو امتثلنــا للاتجاهات المعادية للعلم ، وبأن مجرد البقاء في المستقبل ، دون نظرة علمية واسلوب علمي في التفكير ، سيكون أمرا مشكوكا فيه .

وفي الفصل الاول يركز المؤلف حديثه على سمات التفكير العلمي .

وفي الفصل الثاني يذكر العقبات التي تقف في طريق التفكير العلمي .

وفي الفصل الثالث يدرس المعالم الكبرى في طريق العلم .

وفي الفصل الرابع يلقي الضوء في لمحة سريعة على معنى التكنولوجيا وصلتهــا بالعلم منذ مراحله الاولى حتى عصرنا الحاضر .

وفي الفصل الخامس يعطينا لمحة عن العلم المعاصر منذ مطلع العصر الحديث حسب مفهوم الاوروبيين الى الوقت الراهن .

وفي الفصل السادس يتصدى للحديث عن الابعاد الاجتماعية للعلم المعاصر .

وفي الفصل السابع يتحدث عن مجموعة من العناصر التي يعتقد المؤلف انها من اهم مكونات شخصية العالم ، وهي الاخلاق المتصلة بعمله العلمي ، وثقافته .

وفي خاتمة الكتاب يؤكد المؤلف أن التأمل العميق لمسار التفكير العلمي عبــر العصور وحركته التي تزداد توثبا ونشاطا في العصر الراهن ، يجعل الانسان متفائلا بتوحيد الانسانية عندما ينظر في المستقبل العلمي للبشر ، مع وجود العوامل التي تقف حائلا دون هذا التوحيد . وان توحد العالم بفضل التقدم العلمي ليس هدفا مرغوبا فيه وحسب ، بل هو هدف لا غناء عنه من أجل بقاء البشرية .

وقد قرات هذا الكتاب كله قراءة جادة . ثم قرأته مرة ثانية لاقف على الافكار والاراء التي وردت في تضاعيفه وقفة دقيقة . فخرجت بطائفة من الملاحظات والمآخذ التي أعتقد انها تفيد كل من قرأ هذا الكتاب . وهذه الملاحظات والمآخذ عبارة عن المحاسن التي أجاد فيها المؤلف ، والمساوىء التي وقع فيها المؤلف .

فأول هذه المحاسن الاشفاق على واقع العالم العربي المتأخر علميا ، والالم الممض الذي يعتصر فؤاد المؤلف بسبب هذا التأخر العلمي ، بحيث لا يكاد يخلو فصل من فصول الكتاب من عبارات الاشفاق والالم .

ومع ذلك كان المؤلف يضع اصبعه على الجرح تارة ، ويبتعد اصبعه عن الجرح تارة أخرى .

والموقف الثاني الذي أجاد فيه المؤلف وبلغ مستوى عاليا من الدقة كان في الفصل الثالث من الكتاب « المعالم الكبرى في طريق العلم » . فقد قدم عرضا موجزا للمراحل الرئيسية في طريق العلم ، أي نقاط التحول الكبرى خلال تاريخ العلم ، دون أي خوض في تفاصيل هذه المراحل .

والصورة التقليدية التي كان مؤرخو العلم يصورون بها العلاقة بين الحضارات الشرقية القديمة والحضارة اليونانية في موضوع نشأة العلم ، تتمثل في أن الشعوب التي عاشت في الشرق القديم كانت بازعة في الابستخدام العملي للمعارف الموروثة ، ولكنها لم تكن تملك نفس القدر من البراعة في التحليل العقلي النظري لهذه المعارف . كانت لديها خبرات تتيح لها أن تحقق انجازات عملية هائلة ، ولكنها لم تتوصل الى النظريات الكامنة وراء هذه الخبرات ، ولم تخضعها للتحليل العلمي الدقيق . أما الحضارة التي توصلت الى هذه المعرفة النظرية ، والتي توافرت للانسان في القدرة التحليلية التي تتيح له كشف المبدأ العام من وراء كل تطبيق عملي ، فهي الحضارة اليونانية . وهكذا يمكن تشبيه العلاقة بين حضارات الشرق القديم والحضارة اليونانية ، فيما يتعلق بنشأة العلم ، بالعلاقة بين المقاول والمهندس . فالمقاول هو في معظم الاحيان شخص اكتسب قدرا هائلا من الخبرات العملية ، سواء عن طريق التلقين أم الممارسة ، ولولا القوانين التي تسنها الدول في عصرنا الراهن لكان في استطاعة معظم المقاولين ان يشيدوا أبنية سليمة تؤدي كل الاغراض التي نتوقعها من البناء . أما المهندس فهو ، الى جانب المامه ببعض الخبرات العملية ، يمتلك العلم النظري الذي يتيح له معرفة أسس عملية البناء، ويمكنه من التصرف بحرية والخروج عن القواعد المألوفة في حالة وقوع اي طارىء . وهناك مثل مشهور يضرب في معظم المراجع التي تتناول هذا الموضوع لتوضيح الفارق بين هاتين الحضارتين في هذا الصدد : فقد اهتدى المصريون القدماء بالخبرة الى أن مجموع المربعين المقامين على ضلعي المثلث القائم الزاوية يساوي المربع المقام على وتر هذا المثلث . وكانوا يستخدمون هذه الحقيقة بطريقة عملية في أعمال البناء ... وقد ظلت هذه الحقيقة تستخدم عندهم بطريقة عملية تطبيقية ، دون أن يحاولوا اثباتها بالدليل العقلي المقنع ، بل ان الرغبة في أيجاد مثل هذا الدليل لم تتملكهم على الاطلاق ، لان كل ما يهدفون اليه هو الوصول الى نتيجة عملية ناجحة ، وهذه النتيجة الناجحة تتحقق بتطبيق القاعدة وحسب ، ولن يزيدها الاهتداء الى الدليل العقلي نجاحا .

وفي مثل هذا الجو يستحيل أن يظهر العلم ، لان العلم هو في أساسه بحث عن المبادىء العامة ، لا عن التطبيقات الجزئية ، وهو سعي الى القاعدة النظرية وليس اكتفاء بتحقيق أهداف عملية . ولذلك فان العلم لم يظهر ، للمرة الاولى ، الا عند اليونانيين القدماء ، الذين كان يتملكهم حافز اخر ، يضاف الى حافز الانجاز العملي ، هو الرغبة في الاقتناع ؛ ولم تكن عقولهم تهدأ الا حين تهتدي الى الدليل القاطع والبرهان المقنع .

ويبدي المؤلف على هذه الصورة عدة ملاحظات هامة ، اذ يقول :

« فهذه الصورة لا تخلو من التحيز الحضاري ، اذ أن الاوروبيين المعاصرين هم أحفاد الحضارة اليونانية ، وهم ينتسبون اليها انتسابا مباشرا ، على حين ان الحضارات الشرقية القديمة لا تمت اليهم بصلة ، ومن هنا فقد دأب المؤرخون الاوروبيون ، وخاصة في عصر اشتداد الروح القومية خلال القرن التاسع عشر ، على تمجيد الحضارة اليونانية ، حضارة الاجداد ، وتحدثوا طويلا عن المعجزة اليونانية ، أي عن ذلك الانجاز الهائل الذي حققه اليونانيون فجأة ، دون أية مقدمات تذكر ، ودون أن يكونوا مدينين لاي شعب سابق ، وعن ذلك الوليد الذي ظهر الى الوجود يافعا هائل القوة .... وكلها تعبيرات لا يمكن أن تخلوا من عنصر التحيز ، لا سيما وان أحفاد الحضارات الشرقية القديمة كانوا هم الشعوب الواقعة تحت قبضة الاستعمار الاوروبي في ذلك الحين ، وكانوا يعاملون على انهم شعوب من الدرجة الثانية ، ومن ثم كان من الطبيعي أن تكون الحضارات التي انحدروا منها حضارات من الدرجة الثانية أيضا . وتفترض هذه الصورة التقليدية الشائعة انفصالا تاما بين ميدان الخبرة العملية وميدان البحث العلمي النظري . فهي ترتكز على الاعتقاد بأن شعبا معينا يستطيع أن يكدس خبرات موروثة لمدة الاف السنين ويحقق بواسطتها انجازات هائلة ، كالهرم الاكبر مثلا ، دون أن يكون قد توصل خلال ذلك الى النظريات العلمية التي تكون أساسا لهذه الخبرات . ومثل هذا الاعتقاد ينطوي على مبالغة في الفصل بين الجوانب العملية والجوانب النظرية للمعرفة ، وهو فصل لا تسوغه تجربة البشرية ذاتها في مختلف العصور .... اما القول بأن هناك شعبا لم يعرف طوال تاريخه الا تطبيقات وخبرات عملية ، وشعبا اخر توصل لاول وهلة ، ومن تلقاء ذاته ، الى الاسس النظرية للعلم ، فانه زعم يتنافى مع التجارب الفعلية للبشرية ، فضلا عن تناقضه مع المنطق السليم ..... » (١) .

والموقف الثالث الذي أجاد فيه المؤلف اجادة بارعة كان في الفصل السابع «شخصية العالم » . فقد عالج القضية المعروفة باسم هجرة العلماء أو تسرب العقول من البلاد النامية ومنها البلاد العربية الى أوروبا والولايات المتحدة الاميركية . وفي هذا الصدد يقول : « والتفسير الشائع هو أن المال عامل حاسم في هجرة العلماء ، لا سيما وان البلاد التي يهاجرون اليها قادرة على اغرائهم باجور تزيد أضعافا مضاعفة عن أقصى ما يحلمون في بلادهم الاصلية . وقد يكون عامل المال ذا تأثير بالفعل في بعض الحالات، ولكن أغلب الظن ان هناك عوامل أخرى تنتمي الى صميم العمل العلمي ، هي التي تدفع العلماء الى ترك بلادهم الاصلية وتقديم خبراتهم الى بلاد غريبة عنهم . وعلى رأس هذه

(١) التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ١٢٤ ـ ١٣١ .

العوامل ، وجود الجو الذي يسمح للعالم بممارسة عمله على الوجه الذي يتطلع اليه. ففي اعتقادي ان عامل تحقيق الذات يقوم في حياة العالم ، بدور يفوق بكثير جميع التطلعات المادية . واحساس العالم بأنه يحقق كل ما لديه من امكانات ، وبأن فرص البحث مهيأة له بلا عوائق ، وبأن الجو العام ، في المجتمع الذي يعيش فيه ، يسمح له بالمضي في عمله العلمي دون أن تشغله الدسائس والمؤامرات والمشاغل التافهة . هذا الاحساس العامل الحاسم في اختياره للمكان الذي يفضل أن يعمل فيه . وأوضح مثل على ما نقول هو ما حدث لعلماء الصين : اذا كان عدد من هؤلاء العلماء قد هاجروا الى الخارج ، وخاصة الى الولايات المتحدة ، حيث تبوأوا مراكز مرموقة ، وكانوا يتقاضون مرتبات ضخمة . ولكن في اللحظة التي دعاهم فيها الوطن الى العودة ، عاد معظمهم بالفعل ، ولم يكن هناك أي وجه للمقارنة بين أحوالهم الجديدة ووضعهم القديم من الناحية المالية ، ولكن كان هناك الاحساس بأن الوطن في حاجة اليهم، وبأن المجتمع ينفق على البحث العلمي بأقصى ما يمكنه من سخاء ، وبأن أدوات البحث العلمي ، من أجهزة ومراجع ، متوافرة ، كما أن الجو العام يشجع على البحث ولا يضع أية معوقات أمام المشتغلين به . وبالفعل لاحظ المراقبون الذين زاروا هذا البلد ، حتى من بين خصومه ، ان الدولة تعامل العلماء ومراكز البحث معاملة تفوق بكثير مستوى التقشف العام السائد في المجتمع . وهذا أقصى ما يحتاج اليه العالم : أن يشعر بأن بلده محتاج اليه ، وبأن نتائج بحثه لن تهمل وانما ستعود على المجتمع بالنفع ، وبأن الدولة تحترم العلم وتخصص له كل ما في طاقتها من امكانات ، وبأنه يشارك بصورة ايجابية في مسيرة مجتمع يسعى بجدية من أجل النهوض . اما الكسب او المال فيأتي في مكانة ثانوية اذا تحققت هذه الاهداف الرئيسية . ومن المؤكد أن المجتمع الذي يحترم العلم الى هذا الحد لن يقبل أن يترك علماءه يعيشون في مستوى هابط ، كما أن العالم ، من جهته ، لن يطلب لنفسه أكثر مما يطيق مجتمعه اذا أيقن ان هذا المجتمع جاد ، وانه خلا من الفساد والانتهازية والوصولية والرغبة في التسلق على أكتاف الاخرين وعلى حساب قوتهم الضروري » (١) .

وهذه المواقف الثلاثة التي أجاد فيها المؤلف هي مواقف اجادة في نظري واعتقادي. وقد يرى باحث اخر أن مواقف الاجادة والدقة توجد في غير هذه المواقف التي ذكرتها . ولكل مجتهد نصيب . وكل ميسر لما هو له .

أما سائر الافكار والاراء والمواقف في الكتاب فهي صحيحة في نظري الا التي أذكر انها خطأ أو ضعيفة أو غير سديدة فعند ذلك تخرج من دائرة الصحة والسلامة وتدخل في دائرة الخطأ والضعف في الافكار والاراء والمواقف .

والملاحظ أن المحور الذي تدور عليه كل اخطاء المؤلف يتمثل في تعريف التفكير العلمي تعريفا باطلا ، وادخال العلم في ميادين لا يمكن أصلا أن يخوضها ، وتحميل العلم ما لا يطيق من المهام والمسؤوليات الجسيمة التي يعجز العلم عن القيام بها وحده .

فهذا هو المحور الذي تشعبت عنه أخطاء المؤلف في كتابه « التفكير العلمي » .

١ ــ والتفكير العلمي الذي يقصده المؤلف لا ينصب على مشكلة متخصصة بعينها ،

---

(١) التفكير العلمي ، فؤاد زكريا ، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٦ .

او حتى على مجموعة المشكلات المحددة التي يعالجها العلماء ، بل هو ذلك النوع من التفكير المنظم ، الذي يمكن ان نستخدمه في شؤون حياتنا اليومية ، أو في النشاط الذي نبذله حين نمارس اعمالنا المهنية المعتاده ، أو في علاقاتنا مع الناس ومع العالم المحيط بنا . وكل ما يشترط في هذا التفكير هو أن يكون منظما ، وأن يبنى على مجموعة من المبادىء التي نطبقها في كل لحظة دون أن نشعر بها شعورا واعيا ، مثل مبدا استحالة تأكيد الشيء ونقيضه في آن واحد ، والمبدأ القائل ان لكل حادث سببا ، وان من المحال أن يحدث شيء من لا شيء . والتفكير العلمي ، أو العقلية العلمية ، بهذا المعنى الواسع ، لا بمعنى تفكير العلماء وحدهم (١) .

والتفكير العلمي هو طريقة في النظر الى الامور تعتمد أساسا على العقل والبرهان المقنع ، بالتجربة أو بالدليل . وهي طريقة يمكن أن تتوافر لدى شخص لم يكتسب تدريبا خاصا في أي فرع بعينه من فروع العلم ، كما يمكن أن يفتقر اليها أشخاص توافر لهم من المعارف العلمية حظ كبير ، واعترف بهم المجتمع بشهاداته الرسمية ، فوضعهم في مصاف العلماء (٢) .

والنظرة العلمية الى شؤون الحياة في ميادينها كافة هي وحدها التي تضمن للمجتمع أن يسير في طريق التقدم خلال القرن العشرين .

والحقيقة العلمية نسبية ، وهي لا تكف عن التطور ، وليس هناك رأي نهائي مستقر في العلم . وآخر العلوم في ترتيب الظهور كانت مجموعة العلوم التي تدرس الانسان بطريقة منهجية ، مثل علم الاجتماع وعلم النفس ، اللذين ظهرا في القرن التاسع عشر، أما قبل ذلك فكانت دراسة الانسان متروكة للتأملات الفلسفية ، التي كانت تزودنا ، بغير شك ، بحقائق عظيمة القيمة عن الانسان ، ولكن هذه الحقائق كانت تتخذ شكل استبصارات عبقرية ولا ترتكز على دراسة منهجية . والسبب الرئيسي لذلك هو الاعتقاد الذي ظل سائدا بأن العلم لا يستطيع أن يقترب من مجال الانسان ، وان هذا المجال له حرمته وقداسته الخاصة التي لا يصح أن تنتهك بالدراسة العلمية (٣) .

ولكن حقيقة الامر هي أن هذا الشكل الاولي الذي اتخذته معرفة الانسان لنفسه كان بعيدا عن الطابع العلمي ، ولم يكن من الممكن بالفعل أن يبدأ العلم بدراسة الانسان ، بل كان المعقول أن يبدأ بدراسة الطبيعة الخارجية .

والتفكير العلمي من أهم صفاته التنظيم ، أي اننا لا نترك أفكارنا تسير حرة طليقة، وانما نرتبها بطريقة محدودة ، وننظمها عن وعي ، ونبذل جهدا مقصودا من أجل تحقيق أفضل تخطيط ممكن للطريقة التي نفكر بها .

---

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا ، مقدمة : ص ٥ ــ ٧ .
(٢) انظر المصدر السابق : ص ١٣ .
(٣) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ .

واذا كان العلم تنظيما لطريقة تفكيرنا أو لاسلوب ممارستنا العقلية ، فانه في الوقت ذاته تنظيم للعالم الخارجي .

والتنظيم سمة لا تبدو مقتصرة على العلم وحده . فكل نوع من أنواع التفكير الواعي ، الذي يهدف الى تقديم تفسير للعالم ، يتصف بنوع من التنظيم ، مثل التفكير الاسطوري والتفكير الفلسفي والتفكير الديني .

والكون في نظر العلم لا يسير وفقا لغايات ، وانما تسود مساره الالية ، وكلما تقدمت المعرفة استطعنا أن نبتدع مزيدا من النظام في مسار الحوادث العشوائي في العالم (١) .

والعلم في صميمه معرفة منهجية ، وبذلك نميزه بوضوح عن أنواع المعرفة الاخرى التي تفتقر الى التخطيط والتنظيم . والمنهج هو العنصر الثابت في كل معرفة علمية ، أما مضمون هذه المعرفة والنتائج التي تصل اليها ، ففي تغير مستمر .

والمعرفة العلمية معرفة شاملة . والاختلاف واضح بين العمل العلمي والعمل الفني او الشعري . والواقع ان «اليقين» في العلم مرتبط ارتباطا وثيقا بطابع الشمول الذي قلنا ان القضايا العلمية تتسم به ، اذ أن كل عقل لا بد أن يكون على يقين من تلك الحقيقة التي تفرض نفسها عليه بأدلة وبراهين لا يمكن تنفيذها .

وبعض العلماء لا تجد في كتاباتهم تعبيرا جازما أو يقينا واحدا في كل ما يكتبون ، اذ ممارستهم الطويلة للعمل العلمي ، وادراكهم أن الحقائق العلمية في تغير مستمر ، وان ما كان بالامس أمرا مؤكدا قد أصبح أمرا مشكوكا فيه ، وقد يصبح غدا أمرا باطلا ، كل ذلك يدفعهم الى الحذر من استخدام اللغة القاطعة التي تعبر عن يقين نهائي .

واليقين في العلم موضوعي ، بمعنى انه يرتكز على أدلة منطقية لاي عقل . ولا بد للوصول الى هذا اليقين الموضوعي من هدم كل أنواع اليقين الذاتية الاخرى .

واليقين العلمي يقين غير ثابت وغير نهائي . أما أن تتحول القضية العلمية الى حقيقة تفرض نفسها على الناس في جميع العصور ، فهو شيء يتنافى مع طبيعة العلم ذاتها (٢) .

والمعرفة حتى تكون علما يجب أن تكون قد اكتسبت مناهج منضبطة تجمع بين الملاحظة الدقيقة والفرض العقلي والتجريب التطبيقي ، وتصطنع الرياضة لغة للتعبير عن قوانينها .

والعلم بغير شك هو الحقيقة الكبرى في عصرنا الحاضر ، ومن ثم في كل العصور . وفخرنا بالعلم أعظم من فخرنا بالمذاهب الفكرية والاعمال الادبية والفنية . والتغيير الذي أدخله العلم على حياتنا أقوى من أي تغيير لحقها بفضل أي انجاز اخر .

والعلم الانساني هو العلم القادر على حل المشكلات التي خلقها العلم المتقدم ، وهو العلم الطبيعي .

---

(١) انظر المصدر السابق : ص ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ .

(٢) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٣٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

وتحديد الاهداف التي ينبغي أن يخدمها العلم هو أمر أسمى من أن يترك للسياسيين المحترفين ، وأوسع وارحب من ان يترك للعلماء المتخصصين ، وانما الواجب ان يشارك فيه المفكرون والادباء والفنانون والفلاسفة ، وكل من يهمه مصير الانسانية ، ويفكر في هذا المصير بنزاهة وتجرد .

والعلم محايد بين الخير والشر . والعلم أداة تتيح للانسان أن يفهم العالم المحيط به ، وان يفهم نفسه ، على نحو أفضل ، ومن ثم فهو يزيد من قدرته على السيطرة على العالم الخارجي ، وعلى عالمه الداخلي الخاص . ولكن هذه القدرة محايدة ، بمعنى انها لا تعدو أن تكون طاقة أكبر ، قابلة لان تتشكل في اتجاه الخير أو الشر . وهذه الطاقة عقلية أو مادية (١) .

هذا هو واقع التفكير العلمي وسماته وخصائصه عند مؤلف الكتاب .

والواقع أن مؤلف الكتاب قد وقع في الخطأ الذي يقع فيه كثير من المفكرين الذين يبحثون في معنى العقل أو الادراك أو عملية التفكير أو العملية العقلية .

وهناك اسلوب للتفكير ، وهناك طريقة للتفكير . أما اسلوب التفكير فهو الكيفية التي يقتضيها بحث الشيء ، سواء أكان شيئا ماديا ملموسا ، أم شيئا غير مادي ، أم الوسائل التي يقتضيها بحث الشيء . ولذلك تتعدد الاساليب وتتغير وتختلف ، حسب نوع الشيء ، وتغيره ، واختلافه . أما الطريقة فهي الكيفية التي تجري عليها العملية العقلية أي عملية التفكير حسب طبيعتها وحسب واقعها . ولهذا فان الطريقة لا تتغير ، ولا تتعدد ولا تختلف . وكان لا بد أن تكون هي الاساس في التفكير مهما تعددت أساليب التفكير .

وطريقة التفكير أو الطريقة العقلية ، هي منهج معين في البحث ، يسلك للوصول الى معرفة حقيقة الشيء الذي يبحث عنه ، عن طريق نقل الحس بالواقع ، بواسطة الحراس ، الى الدماغ ، ووجود معلومات سابقة يفسر بواسطتها الواقع ، فيصدر الدماغ حكمه عليه . وهذا الحكم هو الفكر ، أو الادراك العقلي .

وتكون في بحث المواد المحسوسة ، كالفيزياء ، وفي بحث الافكار ، كبحث العقائد وبحث التشريع ، وفي فهم الكلام ، كبحث الادب وبحث الفقه . وهذه الطريقة هي الطريقة الطبيعية في الوصول الى الادراك من حيث هو ، وعمليتها هي التي يتكون بها عقل الاشياء أي ادراكها ، وهي نفسها تعريف للعقل ، وعلى منهجها يصل الانسان من حيث هو انسان الى ادراك أي شيء سبق أن أدركه أو يريد ادراكه .

هذه هي الطريقة العقلية ، وهي وحدها طريقة التفكير ، وما عداها مما يسمى طرق التفكير ، كالطريقة العلمية ، والطريقة المنطقية ، ما هي الا فرع لهذه الطريقة ، أو اسلوب من أساليبها اقتضاها بحث الشيء ، أو وسائل بحثه ، وليست طرقا أساسيا للتفكير . فطريقة التفكير واحدة لا تتعدد وهي الطريقة العقلية ليس غير . واذا استعملت الطريقة العقلية على وجهها الصحيح فانها تعطينا نتائج صحيحة . الا أن

---

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٥٧ ، ٢١٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٩٧

النتيجة التي يصل اليها الباحث على الطريقة العقلية ينظر فيها ، فان كانت النتيجة هي الحكم على وجود الشيء فهي قطعية لا يمكن أن يتسرب الخطأ اليها مطلقا ولا بحال من الاحوال . وذلك لان هذا الحكم جاء عن طريق الاحساس بالواقع ، والحس لا يمكن أن يخطيء بوجود الواقع ، اذ أن احساس الحواس بوجود الواقع قطعي ، فالحكم الذي يصدره العقل عن وجود الواقع في هذه الطريقة قطعي . أما ان كانت النتيجة هي الحكم على حقيقة الشيء أو صفته فانها تكون نتيجة ظنية ، فيها قابلية الخطأ . لان هذا الحكم جاء عن طريق المعلومات ، أو تحليلات الواقع المحسوس مع المعلومات، وهذه يمكن أن يتسرب اليها الخطأ ، ولكن تبقى فكرا صائبا حتى يتبين خطؤها ، وحينئذ فقط ، يحكم عليها بالخطأ ، وقبل ذلك تبقى نتيجة صائبة وفكرا صحيحا . والطريقة العقلية سواء عرفت تعريفا صحيحا أم لم تعرف هي الطريقة التي يجري عليها الانسان من حيث هو انسان في تفكيره وحكمه على الاشياء وادراكه لحقيقتها وصفاتها . ولكن أوروبا ثم أميركا ولحقتها روسيا السوفياتية ، بفعل النجاح الضخم في العلوم التجريبية والانقلاب الصناعي في هذه البلاد منذ القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، قد بلغت عندهم الطريقة العلمية الى حد التقديس ، وسموا اسلوب البحث في العلوم التجريبية طريقة علمية في التفكير فكان ما يسمى بالطريقة العلمية ، وصار ينادي بها أن تكون طريقة التفكير ، وجعلها أساسا للتفكير . وقلدهم فيها سائر أبناء العالم بسبب سيطرة الغرب ونفوذه ، ثم نفوذ الاتحاد السوفياتي . ووجدت في بلاد المسلمين كله قداسة للافكار العلمية وللطريقة العلمية . ومن الامثلة على ذلك كتاب التفكير العلمي الذي نحن في صدده .

والطريقة العلمية هي منهج معين في البحث ، يسلك للوصول الى معرفة حقيقة الشيء الذي يبحث عنه ، عن طريق اجراء تجارب على الشيء ، ولا تكون الا في بحث المواد المحسوسة ، ولا يتأتى وجودها في الافكار ، فهي خاصة بالعلوم التجريبية . وهي تكون باخضاع المادة لظروف وعوامل غير ظروفها وعواملها الاصلية ، وملاحظة المادة والظروف والعوامل الاصلية ، والتي خضعت لها ، ثم تستنتج من هذه العملية على المادة حقيقة مادية ملموسة ، كما هي الحال في المختبرات .

وهذه الطريقة تفرض التخلي عن كل رأي سابق لك في هذا البحث ، وان تبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية . فاذا وصلت الى نتيجة من ذلك كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها . فالنتيجة التي يصل اليها الباحث على الطريقة العلمية هي مع تسميتها حقيقة علمية أو قانونا علميا ، فانها ليست قطعية ولا يقينية ، وانما هي ظنية فيها قابلية الخطأ . وقابلية الخطأ هذه في الطريقة العلمية أساس من الاسس التي يجب أن تلاحظ فيها حسب ما هو مقرر في البحث العلمي . فالطريقة العلمية طريقة صحيحة . ولكنها ليست أساسا في التفكير ، بل هي أسلوب دائم من أساليب التفكير ، وهي لا تطبق على كل أمر ، وانما تطبق في أمر واحد هو المادة المحسوسة لمعرفة حقيقتها عن طريق اجراء تجارب عليها ، ولا تكون الا في بحث المواد المحسوسة ، فهي خاصة بالعلوم التجريبية ولا تستعمل في غيرها .

اما كونها ليست أساسا فظاهر من وجهين : الاول انه لا يمكن السير بها الا بوجود

معلومات سابقة ولو معلومات أولية . والباحث يتخلى عن الاراء السابقة حين البحث ولا يستطيع أن يتخلى عن المعلومات الاولية السابقة .

والمعلومات الاولية ، لاول بحث علمي لا يمكن أن تكون معلومات تجريبية ، لان ذلك لم يحصل بعد ، فلا بد أن تكون عن طريق نقل الواقع بواسطة الحس الى الدماغ ، أي لا بد أن تكون المعلومات قد جاءت من طريق الطريقة العقلية ، ولذلك لا تكون الطريقة أساسا ، بل تكون الطريقة العقلية هي الاساس ، والطريقة العلمية مبنية على هذا الاساس ، فتكون فرعا من فروعه لا أصلا له ، ولهذا فان من الخطأ جعل الطريقة العلمية أساسا للتفكير .

والوجه الثاني ان الطريقة العلمية تقتضي بأن كل ما لا يلمس ماديا لا وجود له في نظر الطريقة العلمية . واذن لا وجود للمنطق ، ولا للتاريخ ، ولا للفقه ، ولا للسياسة، ولا غير ذلك من المعارف ، لانها لا تلمس باليد ، ولا تخضع للتجربة ، ولا وجود لله ، ولا للملائكة ، ولا للشياطين ، ولا غير ذلك من الموجودات ، لان ذلك لم يثبت عن طريق ملاحظة المادة وتجربتها والاستنتاج المادي للاشياء . وهذا هو الخطأ الفاحش ، لان العلوم الطبيعية فرع من فروع المعرفة ، وفكر من الافكار ، وسائر معارف الحياة كثيرة ، وهي لم تثبت بالطريقة العلمية ، بل تثبت بالطريقة العقلية ، ووجود الله ثبت بالطريقة العقلية بشكل قاطع ، ووجود الملائكة والشياطين ثبت بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة . ولذلك لا يجوز أن تتخذ الطريقة العلمية أساسا للتفكير . وعجزها وقصورها عن امكانية اثبات شيء موجود بشكل قاطع دليل قاطع على انها ليست أساسا للتفكير .

وفضلا عن ذلك فان قابلية الخطأ في الطريقة العلمية أساس من الاسس التي يجب أن تلاحظ فيها كما هو مقرر في البحث العلمي . وقد حصل الخطأ في نتائجها بالفعل ، وظهر ذلك في كثير من المعارف العلمية التي تبين فسادها بعد أن كان يطلق عليها حقائق علمية . ولذلك فان الطريقة العلمية طريقة ظنية وليست قطعية ، وهي توجد نتيجة ظنية عن وجود الشيء ، وعن صفته ، وعن حقيقته . ولذلك لا يجوز أن تتخذ الطريقة العلمية أساسا في التفكير . ولكنها على كل حال طريقة صحيحة في التفكير ، وهي طريقة للتفكير ، ولكنها تصلح في العلوم التجريبية وحدها ، أي تصلح فيما يمكن أن تجري فيها الملاحظة والتجربة ثم الموازنة والترتيب ، وما لا يمكن أن يجري فيه ذلك لا تصلح مطلقا .

ولكن الغرب أي أوروبا وأميركا ولحقت بهم روسيا قد بلغت عندهم الثقة بالطريقة العلمية الى حد التقديس لا سيما في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، الى درجة أن أصبحوا منحرفي التفكير ، ضالين عن الصراط المستقيم ، لانهم جعلوا طريقتهم في التفكير الطريقة العلمية ، وجعلوها وحدها أساس التفكير ، وحكموها في جميع الاشياء ، فصاروا يرون أن البحث الصحيح هو الذي يجري على الطريقة العلمية ، وتجاوزوا ذلك الى حد أن صار بعضهم يبحث فعلا أمورا لا علاقة للطريقة العلمية بها ، كالافكار المتعلقة بالحياة والمجتمع ، على نهج الطريقة العلمية وتقليدا لها ، وصار

يبحث بعض المعارف المتعلقة بالانسان وبالمجتمع وبالناس بحثا عقليا ، ولكن على اسلوب الطريقة العلمية ، ويطلق على هذه المعارف اسم العلم . وهذا من جراء تعميمه للطريقة العلمية وتقديره لها ، وجعلها أساسا للتفكير . فمثلا سار علماء الشيوعية في وجهة نظرهم في الحياة ، وفي نظام المجتمع على الطريقة العلمية ، فوقعوا في الخطأ الفاحش الذي ترددوا فيه . والامثلة على خطئهم كثيرة وموجودة في كل فكرة من أفكارهم ، لانهم قاسوا الطبيعة والمجتمع على الاشياء التي تبحث في المختبر فخرجوا بنتائج بالغة الخطأ . ويكفي لادراك الخطأ في الجميع أن نأخذ فكرتين رئيسيتين، ونبين وجه الخطأ في كل منهما ، وان سبب الخطأ هو السير في الطريقة العلمية . ففكرتهم عن الطبيعة ، انها كل لا يتجزأ ، وانها في حالة تغير دائم ، وان هذا التغير يتم بواسطة التناقضات الحتمية الوجود في الاشياء والحوادث . فلنأخذ التناقضات التي هي من الافكار الاساسية عندهم . هذه التناقضات اذا صح انها موجودة في الاشياء ، فانها غير موجودة فيها جميعها ، فهناك أشياء لا توجد فيها تناقضات ، فالاجسام الحية التي يقولون ان فيها تناقضات بحجة ان فيها خلايا تموت وخلايا تحيا ، هذه الاجسام الحية لا يوجد فيها تناقضات . وأما ما يشاهدون في الجسم الحي من وجود خلايا تموت وخلايا تحيا فانه ليس تناقضات ، بل ان كون الاشياء تولد وتموت ، وتفني وتوجد ، لا يعني أن هذا تناقضات ، بل هو ناتج عن قوة الخلية وضعفها ، وقدرتها عن المقاومة وعجزها عنها ، وهذا ليس تناقضات . والاجسام غير الحية يحصل فيها فناء ولا تحصل ولادة . ومع ذلك يقولون انه يوجد في الاشياء كلها تناقضات . ولو سلمنا جدلا ان في الاشياء تناقضات فان هذا لا يعني أن في الحوادث تناقضات . فعمليات البيع والاجارة والشركة ونحوها ، كلها تجري دون أية تناقضات فيها ، وعمليات الصلاة والصوم والحج وأمثالها ، كلها تجري دون أية تناقضات . ولكن سلوكهم الطريقة العلمية هو الذي أدى الى خطأ نظريتهم ، ولا سيما في الحوادث . وقد كان من جراء خطأ نظريتهم هذه وهي ان الحوادث فيها تناقضات حتمية ، ان أدت الى ما كانوا يظنونه من أن التناقضات في أوروبا ستحصل حتما ، واذا أوروبا لا يحصل فيها تناقضات ، وتغرق في النظام الراسمالي وتبعد عن الشيوعية ، بل نرى أصحاب النظرية أنفسهم يأخذون ببعض المعالجات الراسمالية . والذي أوقعهم في الخطأ هو سلوك الطريقة العلمية في الحكم على الاشياء ، وسلوكهم الطريقة العلمية في الحكم على الحوادث . وفكرتهم عن المجتمع هي ان المجتمع مؤلف من الوسط الجغرافي ومن نمو السكان وتكاثفهم ، ومن اسلوب الانتاج . فالحياة المادية في المجتمع هي التي تحدد في النهاية هيئة المجتمع وافكاره وآراءه وأوضاعه السياسية . وبما ان الحياة المادية انما يؤثر فيها اسلوب الانتاج ، فيكون اسلوب الانتاج هو الذي يؤثر في المجتمع ، ذلك ان أدوات الانتاج ، والناس الذين يستعملون هذه الادوات ، ومعرفة استخدامها تؤلف بمجموعها قوى المجتمع المنتجة ، فتؤلف جانبا واحدا وهو الجانب الذي يعبر عن سلوك الناس نحو أشياء الطبيعة ، وقواها المنتجة . أما الجانب الاخر فهو علاقة الناس فيما بينهم أثناء سير الانتاج . وهذا خطأ ، فان المجتمع هو الناس وما بينهم من علاقات ، بغض النظر

عن أدوات الانتاج ، بل بغض النظر عن وجود أدوات انتاج أو عدم وجودها . لان الذي يوجد العلاقات بينهم هو المصلحة ، وهي لا تقررها أدوات الانتاج ، وانما تقررها الافكار التي يحملونها عن اشباع الحاجات التي يريدون اشباعها . والذي أوجد الخطأ هو انهم رأوا المجتمع كما يرون المادة في المختبر ، فصاروا يحاولون بحث ما يرونه من عناصر تطبيقا لنظريتهم ، وأخذوا يطبقون ما يحصل في المادة على الناس وعلاقاتهم ، فوقعوا في الخطأ ، لان الناس غير الاشياء ، والعلاقات والحوادث لا تخضع للبحث كما تخضع المادة في المختبر . فاخضاعها للملاحظة والتجربة والخروج بنظريات هو الذي أوقعهم في الخطأ . فالشيوعية كلها سبب خطئها سبب واحد هو سلوكها الطريقة العلمية في الحوادث والعلاقات ، وكان هذا من جراء ما شاع في القرن التاسع عشر من اجلال كبير للطريقة العلمية ، ومن الايغال فيها الى حد تطبيقها على كل شيء ، والسير بها في كل بحث .

وأيضا فان علماء الغرب أي علماء أوروبا وأميركا خلطوا بين الافكار الاستنتاجية الناتجة عن الطريقة العقلية ، والافكار العلمية الناتجة عن الطريقة العلمية ، فطبقوا الطريقة العلمية على تصرفات الانسان وأحواله ، وأخرجوا ما يسمى بعلم النفس وعلم الاجتماع وعلوم التربية ، فكانت نتيجة ذلك هذا الخطأ البارز فيما يسمى بعلم النفس وعلم الاجتماع وعلوم التربية . ويعدون أفكار هذه العلوم المزعومة أفكارا علمية ، لانها قامت على ملاحظات جرى تتبعها على الاطفال في ظروف مختلفة وأعمار مختلفة ، أو على جماعات مختلفة ، في ظروف مختلفة ، أو على أعمال مختلفة ، لاشخاص مختلفين ، في ظروف مختلفة ، فسموا تكرار هذه الملاحظات تجارب . والحقيقة ان أفكار علوم النفس ، والاجتماع ، والتربية ، ليست أفكارا علمية ، لان التجارب العلمية هي اخضاع المادة لظروف وعوامل غير ظروفها وعواملها الاصلية ، ثم ملاحظة اثر هذا الاخضاع ، أي اجراء التجارب على نفس المادة كتجارب الطبيعة والكيمياء . اما ملاحظة الشيء في أوقات وأحوال مختلفة كملاحظة الطفل مثلا في أحوال وأعمار مختلفة ، وملاحظة الجماعات في بلدان وظروف مختلفة ، فلا تدخل في بحث التجارب العلمية ، ولا يعد طريقة علمية ، بل ملاحظة وتكرار ملاحظة واستنتاج وحسب ، وذلك طريقة عقلية ، وليست علمية . فكان من الخطأ أن يعد أفكارا علمية . وكان هذا الخطأ ناتجا عن الخطأ الفاحش في تطبيق الطريقة العلمية على الانسان . لان الطريقة العلمية أهم ما فيها هو التجربة ، وهذه لا تتأتى الا في المادة ، لانها هي التي تخضع للاختبار في المخبر . وعلى هذا فان أفكار ما يسمى علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم التربية أفكارا عقلية ، تدخل في الثقافة ، ولا تدخل في العلم .

وعلوم النفس والاجتماع والتربية ، أمور ظنية قابلة للخطأ ، وليست من الامور القطعية ، فلا يصح أن تتخذ أساسا للحكم على الاشياء ، ولا يجوز أن يستدل بها على صحة الاشياء ، أو عدم صحتها ، لانها ليست من قبيل الحقائق العلمية ، أو القوانين العلمية ، بل هي معارف ظنية . وهي وان توصل اليها بالطريقة العقلية ، ولكنها ليست من قبيل الحكم بوجود الاشياء ، بل من قبيل الحكم على حقيقة الشيء . وهذا الحكم ظني قطعا ، فيه قابلية الخطأ . وهذه المعارف الثلاث : علوم النفس ، والاجتماع ، والتربية ، مبنية على أسس مغلوطة ، وهذا ما جعل كثيرا من الافكار التي احتوتها ،

أفكارا مغلوطة ، لان علم النفس مبني في جملته على نظرته للغرائز والدماغ ، حيث ينظر الى أن في الانسان غرائز كثيرة ، منها ما اكتشف ومنها ما لم يكتشف . وبنى علماء النفس على هذه النظرة للغرائز نظريات خاطئة ، فكان ذلك من الاسباب التي ادت الى الخطأ في كثير من الافكار الموجودة في علم النفس . أما الدماغ ، فعلم النفس يعده مقسما الى مناطق ، وكل منطقة لها قابلية خاصة ، وفي بعض الادمغة قابليات ليست موجودة في ادمغة اخرى . وبناء على ذلك فان بعض الناس فيهم قابلية لفهم اللغات ، وليس فيها قابلية لفهم الرياضيات ، وعلى العكس . وهكذا بنيت هذه النظرة الخاطئة على نظريات خاطئة . والحقيقة في هذا كله : ان المشاهد بالحس من تتبع الرجع ، أو رد الفعل ، ان في الانسان طاقة حيوية لها مظهران : المظهر الاول : يتمثل في الحاجات العضوية ، كالجوع والعطش وقضاء الحاجة . المظهر الثاني : يتمثل في الغرائز الثلاث: التدين ، والنوع ، وغريزة البقاء ، وهذه الغرائز هي الشعور بالعجز ، والشعور ببقاء النوع ، وببقاء الذات ، ولا يوجد غير ذلك . وما عدا هذا فيكون مظاهر لهذه الغرائز فقط . وأما الدماغ فالحقيقة انه واحد ، وان تفاوت الافكار واختلافها ، تابع لتفاوت المحسوسات والمعلومات والمعلومات السابقة واختلافها ، ولقوة الربط ، ولا توجد في دماغ قابلية لا توجد في الاخر ، بل في جميع الادمغة قابلية التفكير في كل شيء ، والادمغة تتفاوت في قوة الربط وفي قوة الاحساس ، كما تتفاوت الحواس الخمس قوة وضعفا . ولذلك يمكن اعطاء كل فرد معلومات ، وفيه قابلية لهضمها ، ولا أساس لما جاء في علم النفس من القابليات للادمغة . وبناء على ذلك فاعتبار علم النفس للغرائز والدماغ هو اعتبار خاطىء أدى الى خطأ النظريات التي بنيت على أساسها .

أما علم الاجتماع فمبني في جملته على نظرته للفرد والمجتمع ، وهذه النظرة مبنية على الفطرة الفردية . ولهذا تنتقل من الفرد الى الاسرة ، والى الجماعة ، والى المجتمع، على اعتبار أن المجتمع مكون من أفراد ، ولهذا تعد المجتمعات منفصلة ، وما يصلح لمجتمع لا يصلح لاخر ، وبنى علماء الاجتماع على هذه النظرة نظريات خاطئة ، وكان ذلك هو السبب الرئيسي الذي أدى الى الخطأ في نظرات علم الاجتماع . وأما ما جاء في علم الاجتماع عن الجماعة من أن الجماعة أسرع ادراكا للامور وأقوى اثارة للمشاعر من الفرد الواحد ، فصحة هذا القول لم تأت من ناحية النظرة الى المجتمع ، وانما أتت من حيث غلبة المعلومات الكثيرة المتكررة على المعلومات الفردية . كل ما يبني اذا على النظرة الى المجتمع فاسد ، وما صح منه تأتي صحته من كونه ناتجا عن سبب اخر ، لا عن النظرة الى المجتمع ، وعليه فان علم الاجتماع فاسد ، لانه مبني على نظرة فاسدة، وهي النظرة الى المجتمع والفرد .

ولنأخذ مثالا يقوم به أساتذة علم الاجتماع الحضري وطلابهم على دراسة مشكلات المرأة العاملة في القاهرة مثلا لنبين وجه الباطل والخطأ والتعميم في تلك البحوث الاجتماعية وبسبب ذلك لا يصح أن نسمي تلك البحوث علما . يقوم الاستاذ عادة بعمل استبيان للاجابة عن الاسئلة الواردة فيه . وينتخب الاستاذ عينة عشوائية من كل صنف من أصناف العاملات في القاهرة ، طبيبات ومهندسات وصيدليات ومدرسات الى غير ما هنالك . وما يحصل فعلا ان كثيرا من الاسئلة لا يجاب عنها مخافة الحرج

أو الخجل . ومشكلات مدرسة في القاهرة تختلف في كثير من الاحيان عن مشكلات زميلة لها تعمل في نفس المدرسة وقد تسكن معها في نفس الحي . فالمدرسة الاولى تعيش معها أمها أو حموها ويمتلك زوجها سيارة . أما الثانية فتعتمد على الخادمة ولا يقتني زوجها سيارة . فتكون مشكلات المدرسة الاولى غير مشكلات المدرسة الثانية في ناحية المواصلات ورعاية الاولاد . وقس على ذلك حالات كثيرة من أصناف العاملات في القاهرة . فاذا كانت مشكلات مدرسة في القاهرة لا تنطبق على مشكلات زميلتها في نفس المدرسة والمدينة ، فكيف نعمم ما نحصل عليه من نتائج الاستبيان على مشكلات المرأة العاملة في سائر مدن مصر ، بل كيف تعمم تلك النتائج على مشكلات المرأة في العالم ؟!

ومعلوم أن العلم يقول ان الماء يغلي على درجة مائة مئوية ويتجمد على درجة الصفر في جميع أنحاء العالم .

أما علوم التربية فهي مبنية على علم النفس ، ومتأثرة بنظريات علم الاجتماع بعدما لوحظت أعمال الافراد وأحوال الاطفال مما جعل الصحيح يختلط بالفاسد فيها ، وما يبني على علم النفس ، وتأثر بعلم الاجتماع فهو فاسد .

وفساده أدى الى الوقوع بأفكار تربوية فاسدة ، أدت الى فساد مناهج التعليم وطرقه . فاعتبار الطفل غير قابل لبعض العلوم ، وقابلا لبعضها الاخر هو اعتبار فاسد . ولذلك كان تقسيم التعليم الى علمي وأدبي تقسيما فاسدا . وقد أدى الى حرمان كثير من التلاميذ والطلاب من تعلم بعض العلوم وحرمان كثير من مواصلة التعليم . أما ما يبني من علوم التربية على ملاحظة الاطفال ، وأعمال الافراد في ظروف وأحوال مختلفة ، فما كان منها موافقا للواقع ، كالتعب والراحة والنشاط الذهني وما شاكل ذلك ، كان صحيحا في جملته ، وما كان منها غير موافق للواقع كتقسيم السنة الى ثلاثة فصول ، واعطاء أربعة أشهر عطلة للتلميذ ، والامتحانات وما شاكلها ، فانه خطأ في جملته . ولذلك جاء خطأ النظريات التربوية ، وفساد علوم التربية في جملتها ، ولا سيما ما يبني على علم النفس ، وتأثر بعلم الاجتماع (١) .

وعلى هذا فان للتفكير طريقتين اثنتين ليس غير ، هما الطريقة العقلية ، وتحتاج الى ملاحظة واستنتاج ، والطريقة العلمية ، وتحتاج الى ملاحظة وتجربة واستنتاج ، ولا يوجد غيرهما بعد البحث والاستقراء . والطريقة العلمية لا تصلح الا في فرع من فروع المعرفة ، وهو فرع بحث المادة التي تخضع للتجربة ، بخلاف الطريقة العقلية فانها تصلح لكل بحث من الابحاث . لذلك فانه يجب أن تكون الطريقة العقلية هي الاساس في التفكير . ففي الطريقة العقلية ينشأ الفكر ، وبدونها لا ينشأ فكر انشاء جديدا وبواسطة الطريقة العقلية يوجد ادراك الحقائق العلمية بالملاحظة والتجربة والاستنتاج، اي بواسطتها توجد الطريقة العلمية نفسها ، وبواسطتها يوجد ادراك الحقائق المنطقية ، وبواسطتها يوجد ادراك حقائق التاريخ وتمييز الخطأ من الصواب فيها ،

(١) انظر كتاب التفكير ، تقي الدين النبهاني : ص ٢٦ ، ٢١ ، وكتاب الاسلام وثقافة الانسان ، سميح عاطف الزين : ص ١٧٠ ، ١٧٣ .

وبواسطتها توجد الفكرة الكلية عن الكون والانسان والحياة وعن حقائق الكـــون والانسان والحياة .

والفكر ينقسم الى : سطحي ، وعميق ، ومستنير .

والسطحي : هو النظر الى الشيء والحكم عليه بدون فهم .

والعميق : هو النظر الى الشيء وفهمه ثم الحكم عليه .

والمستنير : هو النظر الى الشيء وفهمه وما يتعلق به ثم الحكم عليه

وعن طريق الفكر المستنير يتم نهوض الامم نهوضا صحيحا (١) .

وبهذا العرض لواقع الطريقة العقلية في التفكير والطريقة العلمية في التفكير نستطيع ان نفند اقوال صاحب الكتاب الذي نحن في صدده ونبين آرائه وبعدها عن الصواب . ولو ان المؤلف ادرك الواقع الصحيح لعملية التفكير ، اية تفكير ، وعرف ان الطريقة العقلية هي الاساس في التفكير ، والطريقة العلمية هي فرع بني على اصل واسلوب دائم من اساليب التفكير ، لما وقع في كثير من الاخطاء التي سننتبه اليها الواحد تلو الاخر ، ومن الغريب حقا ان ترد عبارة « التفكير العقلي » في الكتاب اكثر من مرة ومع ذلك لم يلتفت المؤلف الى بيان واقع التفكير العقلي والتفكير العلمي (٢) .

فالمؤلف كاد ان يصل الى الواقع الصحيح لطريقتي التفكير ، ولكنه مر بتلك العبارة مرات مر الكرام ، ولم يكلف نفسه عناء التفكير بها .

والمؤلف يجعل التفكير العلمي أو بصورة ادق الطريقة العلمية في التفكير هي الاساس في التفكير ، ويجعل التفكير العقلي او بصورة ادق الطريقة العقلية في التفكير ، فرعا من فرعي التفكير ، مع انها الاساس في التفكير كما بينا آنفا .

فالتفكير العلمي عند مؤلف الكتاب يشمل تفكير العلماء المتخصصين في العلوم التجريبية وكل تفكير منظم يستخدمه الانسان في حياته . وهذا راي مغلوط . لان التفكير العقلي وحده هو الذي يوجد تفكير العلماء المتخصصين في العلوم التجريبية وكل تفكير منظم يستخدمه الانسان في شؤون حياته . اي ان المؤلف جعل الفرع اساسا ، وجعل الاساس فرعا بسبب تقديسه للطريقة العلمية في التفكير تقليدا للغرب الرأسمالي وروسيا الاشتراكية .

اما قول المؤلف ان التفكير العلمي هو طريقة في النظر الى الامور تعتمد اساسا على العقل والبرهان المقنع ، بالتجربة أو بالدليل ، وهي طريقة يمكن أن تتوافر لدى شخص لم يكتسب تدريبا خاصا في اي فرع بعينه من فروع العلم ، وضرب مثلا على ذلك التاجر الناجح العقلاني المنطقي في نظرته الى العالم ، كما يمكن أن يفتقر اليها أشخاص توافر لهم من المعارف العلمية حظ كبير ، واعترف بهم المجتمع بشهاداته الرسمية ، وضرب مثلا على ذلك الاستاذ في الجامعة الذي يؤمن بالشعوذة والخوارق ، فقول خطأ . لان

---

(١) انظر كتاب التفكير ، تقي الدين النبهاني : ص ٤٨ ، ٤٩ ، وكتاب الاسلام وثقافة الانسان ، سميح عاطف الزين : ٢ : ٢١ .

(٢) انظر كتاب التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٤٠ .

التفكير العلمي هو تفكير العلماء المتخصصين في العلوم التجريبية وحسب . اما تفكير التاجر الناجح العقلاني فتفكير عقلي ، وهو طريقة التفكير الاساسية عند الانسان ومنهم العلماء المتخصصون في العلوم التجريبية . ونجاح التاجر لا يتوقف على النظرة العقلانية والمنطقية الى العالم والى القوانين المتحكمة فيه وحسب ، فان الرزق هو الذي يتحكم في ذلك النجاح أو الاخفاق . مع ان حسن التدبير والعقل الواعي ومعرفة الواقع التجاري في السوق المحلي والعالمي حالة من حالات الرزق ، وليست نتيجة حتمية . ولو كان راي المؤلف صحيحا لكان أذكى التجار واعقلهم واكثرهم نشاطا هو اغناهم واكثرهم نجاحا ورزقا . والواقع التجاري ينفي ذلك . ولا اجاوز الحقيقة اذا قلت بأن كثيرا من التجار النابهين يعلنون افلاسهم أحيانا ، وقد ينجح التاجر الذي يفتقر الى النظام والذكاء والمنطق والعقلانية ، ويكون رزقه واسعا .

والرزق لا يعتمد على الحجا وحده ، ولو كان ذلك كذلك لهلكت البهائم لانها لا تعقل . اما الاستاذ في الجامعة الذي يحمل أرقى الشهادات العلمية ويؤمن بالشعوذة فقد يكون مبدعا ومتفوقا في ناحية التفكير العلمي ولكنه هابط الفكر في ناحية التفكير العقلي . وقد تجد كثيرا من علماء الفيزياء والذرة والهندسة وغيرها من العلوم الطبيعية مبدعين في تخصصاتهم ومع ذلك يصلون لصنم أو خشبة !

وعندما يؤمن هذا الاستاذ بالخوارق التي رويت عن الرسل صلوات الله عليهم وسلامه بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة فلا يكون أن يوصف بالهبوط في التفكير ، لان الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق القوانين في الاشياء ، وهو وحده قادر على سلب هذه الاشياء خواصها أو قوانينها لفترة معينة ، ليكون ذلك معجزة للرسول أو للنبي في أمر خارق للعادة ليصدقه قومه الذين أرسله الله اليهم .

واما قول المؤلف ان النظرة العلمية الى شؤون الحياة في ميادينها كافة هي وحدها التي تضمن للمجتمع أن يسير في طريق التقدم خلال القرن العشرين فقول خطأ من ناحيتين ، الاولى : ان النظرة العلمية لا تكون الا في بحث المادة المحسوسة التي تبحث في المختبر . اما النظرة الى شؤون الحياة في ميادينها كافة فلا تكون الا بالتفكير العقلي المستنير ولا تكون بالتفكير العلمي مطلقا .

الثانية : ان الرقي الفكري العقلي المستنير هو الذي يضمن النهوض الحقيقي للبشرية ، ويجعل العلم والتكنولوجيا في خدمة الانسان وليسا عدوين لدودين له .

واما تسميته الافكار التي تدرس الانسان بعلمي الاجتماع والنفس فهو خطأ ، لان هذه الافكار تدخل في الثقافة ولا تدخل في العلم . وقد بينا ان التجربة العلمية مفقودة في البحوث الاجتماعية والنفسية ، وهي مجرد ملاحظة وتكرار ملاحظة وحسب .

واما قوله : « لم يكن من المعقول أو الممكن أن يبدأ العلم بدراسة الانسان ، بل كان المعقول أن يبدأ بدراسة الطبيعة الخارجية » فخطأ ، لان دراسة الانسان لا يمكن أن تكون بالطريقة العلمية في التفكير ، بل بالطريقة العقلية . والانسان لا يخضع للاذابة

والتفتيت مثل المادة . والذي يصح في الافهام ن يبدأ العقل بدراسة الانسان بالطريقة العقلية ، ثم تأتي المرحلة التي يستطيع فيها الانسان دراسة الطبيمة الخارجيةبالطريقة العلمية . لان المرحلة الاولى أقل تعقيدا من المرحلة الثانية .

واما قول المؤلف ان التفكير العلمي من أهم صفاته التنظيم ، أي اننا لا نترك أفكارنا تسير حرة طليقة ، وانما نرتبها بطريقة محدودة ، وننظمها عن وعي فقول مغلوط . لان التنظيم والترتيب يجب أن يتوافرا في التفكير العقلي العميق والمستنير معا . ومن أهم صفات التفكير العلمي التجربة العلمية المنظمة الدقيقة . ومع ذلك فالتنظيم والتربية والموازنة عوامل هامة في التفكير العقلي والتفكير العلمي معا .

ولا يوجد الا طريقتان في التفكير ، الطريقة العقلية وهي الاســاس في كل تفكير ، والطريقة العلمية ، وهي فرع بني على أصل . وليس هناك تفكير اسطوري ، أو تفكير فلسفي ، أو تفكير ديني . وانما هناك طريقة التفكير العقلي التي تبحث في الاساطير والفلسفة والدين وغيرها من البحوث والموضوعات التي لا تبحث في المختبر .

والعلم لا ينظم طريقة تفكيرنا أو اسلوب ممارستنا العقلية . بل الذي ينظم طريقة التفكير العلمي هو التفكير العقلي العميق أو المستنير .

والعلم هو نتاج لطريقة التفكير العلمي وحسب . ولولا طريقة التفكير العقلي لما وجد تفكير علمي أصلا . والعلم لا ينظم العالم الخارجي . لان العالم الخارجي منظم أصلا . والذي أبدع نظامه خالق الكون والانسان والحياة . وعرفنا ذلك يقينا بالطريقة العقلية للتفكير . فالشمس تشرق يوم ١ — ٤ — ١٩٧٩ في نفس الثانية التي أشرقت الشمس يوم ١ — ٤ — ١٩٧٨ .

كان ذلك في عهد العلم والتكنولوجيا . وكان ذلك قبل أن يوجد علم يستحق الذكــر على سطح الارض . وقوانين المادة وفصول السنة موجودة قبل العلم وبعده . والكون يسير وفقا لغايات وضعها له الخالق الحكيم سبحانه وتعالى . وفشل العلم في اثبــات شيء موجود قطعا دليل على قصوره وعجزه ، ودليل على انه لا يجوز أن يتخذ أساسا في التفكير . وبالتفكير العقلي المستنير يصل الانسان الى يقين جازم يقول ان العالم الخارجي منظم ، ويسير وفقا لغايات لا يتعداها ولا يحيد عنها ، وان هناك خالقا حكيما مبدعا يدير الكون وأمور المخلوقات . وصحيح أن الكون تسود مساره الالية . ولكن من الذي وضع هذا المسار ؟! واذا قلنا ان الجاذبية التي بين النجوم والكواكب هي التي تسير الكون ، فيجب أن نسأل : من الذي أوجد هذه المسافات المنظمة غير العشوائية بين نجم ونجم ، وبين نجم وكوكب ، وبين كوكب وكوكب ؟! فاذا قال قائل : انها النجوم والكواكب ، فنقول له : معنى ذلك ان هذه النجوم والكواكب تمتلك من الحيوية والارادة ما يحقق لها هذا المسار المنظم . والذي يمتلك الحيوية والارادة يمتلك بالتالي الاختيار والتغيير . ولان مدار النجوم والكواكب لا يتغير ، فالمدار هذا مفروض عليها منخارجها وليس منها ، وهو الخالق الحكيم . ومع تقدم العلم والتكنولوجيات يموت الانسان . والمحدودية والعجز والنقص والاحتياج هي صفات تفرض نفسها على الكون والانسان

والحياة . وعشرات من الشواهد تمر أمام الانسان الواعي في كل عام تقريبا تؤكد له عجز العلم والتكنولوجيا الى وقتنا هذا عن مواجهة عاصفه ثلجية شديده أو جفاف شامل أو موت انسان .

ومسار الحوادث في العالم ليس عشوائيا . لان ذلك يقوم على الاسباب والغايات التي وضعها الخالق الحكيم . وكل علماء الارض في عصرنا الراهن وبعده عاجزون عن الغاء قانون الجاذبية مثلا ، وكل الذي يستطيعه العلماء هو التملص بوسائل علمية من هذا القانون الذي يفرض نفسه ، ولا يستطيع أحد أن يلغيه.

والعلم في صميمه معرفة منهجية تقوم بالبحث عن المادة الملموسة المحسوسةبالملاحظة ثم التجربة ثم الموازنة والترتيب ثم الاستنتاج . وليس شرطا أن تكون سائر المعارف التي تحصل بالطريقة العقلية مفتقرة الى التخطيط والتنظيم . وقد سبق أن أوردنــا قولا للمؤلف يصف التاجر الناجح بالعقلانية والنظرة المنطقية الى شؤون الحياة ويجرد صاحب أرقى شهادة من النظرة العلمية لانه يؤمن بالشعوذة والخوارق . ومعروف أن التاجر يفكر بالطريقة العقلية . وكم بحث يقوم على الطريقة العقلية يصل الى غاية التخطيط والتنظيم ، وكم بحث يقوم على الطريقة العلمية يفتقر الى أدنى درجة مــن التخطيط والتنظيم . وهذا القول الاخير ينسجم مع كلام المؤلف . ولكن المؤلف يقول الفكرة ونقيضهــا .

والملاحظة والتجربة والاستنتاج هي العناصر الثابتة في كل معرفة علمية ، بشرط أن تنصب على بحث المادة المحسوسة . وأما النتائج التي يصل الباحث اليها بالطريقــة العلمية فهي صحيحة فيها قابلية الخطأ ، وليست في تغير مستمر كما يقول المؤلف .

والمعرفة معرفة صحيحة فيها قابلية الخطأ . والعمل العلمي لا يكون الا في بحث المادة التي تبحث في المختبر . والعمل الفني أو الشعري يقوم على الطريقة العقلية في التفكير في المقام الاول ، ويستعين بالرياضيات في العروض والتناسب بين أجزاء الصورة والنغم . والواقع انه لا يقين في العلم اطلاقا . لان اليقين يعني القطع والجزم والثبات في النتائج . وتناقض المؤلف واضح عندما يصف نتائج المعرفة العلمية تارة بالتغــير المستمر ، ويصفها تارة أخرى بأنها يقينية . ولا يقين الا في الطريقة العقلية عندمــا تبحث وجود الشيء المحسوس مادة أو أثرا أو خاصة من اثاره أو خواصه ، والقولبأن النتائج العلمية صحيحة فيها قابلية الخطأ شيء وانها يقينية شيء آخر .

والدليل على تناقض المؤلف قوله بعد ذكر اليقين في العلم ان بعض العلماء لا تجد في كتاباتهم تعبيرا جازما أو يقينا واحدا في كل ما يكتبون . لان ممارستهم الطويلة للعمل العلمي تدفعهم الى الحذر من استخدام اللغة القاطعة التي تعبر عن يقين نهائي (١) .

ثم يعود المؤلف فيقرر أن اليقين في العلم موضوعي، بمعنى انه يرتكز على أدلة منطقية مقنعة لاي عقل . ولا بد للوصول الى هذا اليقين الموضوعي من هدم كل أنواع اليقين الذاتية الاخرى (٢) . والواقع انه لا يقين في العلم اطلاقا .

فالقوانين العلمية والحقائق العلمية صحيحة فيها قابلية الخطأ . ولا بد للباحــث

---

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٤٨ ، وقارن بما ورد في ص ٣٠ مثلا .

(٢) انظر المصدر السابق : ص ٤٩ .

حين البحث العلمي في المادة أن يهدم أو يتخلى عن الاراء السابقة لا المعلومات السابقة التي هي بديهيات ومسلمات .

ثم يعود المؤلف في الصفحة التالية فيقرر أن اليقين العلمي ليس ثابتا وليس نهائيا . وأن تتحول القضية العلمية الى حقيقة تفرض نفسها على الناس في جميع العصور ، فهو شيء يتنافى مع طبيعة العلم ذاتها .

والعلم ليس هو الحقيقة الكبرى في عصرنا الحاضر وفي سائر العصور السابقة واللاحقة . لان المبدأ الرأسمالي والاشتراكي هما اللذان اقاما القاعدة لتقدم العلوم والتكنولوجيا في القرنين التاسع عشر والعشرين مع فسادهما وتهافتهما .

والتغيير الذي أدخله هذان المبدآن على حياة أوروبا والولايات المتحدة الاميركية وروسيا السوفياتية اقوى من أي تغيير اخر . ولولاهما لما كان علم ولا تكنولوجيا في تلك البلاد . ولولا احتكاك القوم بالمسلمين في الحروب الصليبية لما كان عندهم نهوض فكري بالقياس الى أوضاعهم السابقة .

والثورة الفرنسية التي قامت في أواخر القرن الثامن عشر هي الحقيقة الكبرى في تاريخ حياة الشعوب وأوضاعها الفكرية والادبية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وعندما يرقى المسلمون فكريا على أساس الاسلام سيكونون سادة الدنيا علما وتكنولوجيا وسياسة وقوة . وستكون تلك الثورة الفكرية المبدئية عندئذ حقيقة الحقائق الكبرى .

وليس هناك علم انساني . لان الانسان لا يبحث في المختبر . والعلم المتقدم أي العلم الطبيعي لا يخلق أية مشكلة للبشر . والذي يوجد المشكلات الافكار الرأسمالية والاشتراكية التي تقوم على المنافع والمادة .

وانشطار الذرة في هذا القرن لا يهدد البشر . والذي يهدد البشر حقا هو من أعطى الامر للعلماء بتفجير قنبلتين ذريتين على مدينتي هيروشيما ونجازاكي في اليابان لايقاف الحرب العالمية الثانية وحسم الموقف لصالح الحلفاء . فعلت ذلك القيادة السياسة الاميركية بالتشاور مع حلفائها .

ومعروف أن الافراد والشعوب والامم انما تسير بحسب مفاهيمها عن الكون والانسان والحياة . والذي يسير أميركا هو المبدأ الرأسمالي الذي يقوم على المنافع والتنافس على المنافع والاستعمار . والذي يسير دول المحور هو ذلك المبدأ . والذي يسير روسيا السوفياتية هي الاشتراكية الماركسية التي تقوم على المادة والمنافع .

ومن التناقض الواضح عند المؤلف انه يقول تارة ان العلم المتقدم وهو العلم الطبيعي خلق مشكلات . والعلم الانساني هو العلم القادر على حل هذه المشكلات . ثم يقول تارة أخرى ان العلم محايد بين الخير والشر . وهو اداة تتيح للانسان أن يفهم العالم المحيط به ، وان يفهم نفسه ، على نحو أفضل ، ومن ثم فهو يزيد من قدرته على السيطرة على العالم الخارجي ، وعلى عالمه الداخلي الخاص . ولكن هذه القدرة محايدة . بمعنى انها لا تعدو أن تكون طاقة أكبر ، قابلة لان تتشكل في اتجاه الخير أو الشر . وهذه الطاقة قد تكون عقلية أو مادية (١) .

---

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٢٩٧ وقارن ذلك بما ورد في ص : ٢٧٠ .

وتناقض اخر يتمثل في قوله ان العلم الانساني هو العلم القادر على حل المشكلات التي أحدثها العلم الطبيعي . فالعلم الانساني على حد قوله يقوم به الانسان المختص ، والعلم الطبيعي يقوم به الانسان المختص أيضا . فكيف يحل هذا مشكلات ذاك وهما يحملان نفس الافكار والثقافة والمقاييس عن الحياة ؟ !

وتحديد الاهداف التي ينبغي أن يخدمها العلم في المجتمع الرأسمالي والاشتراكي يقوم به السياسيون . وان شئت فقل رئيس الدولة في كلا المجتمعين ، مع وجود الديموقراطية شكلا في المجتمع الرأسمالي ، ووجود الكوادر الحزبية في المجتمع الاشتراكي السوفياتي ، فالحكم في الاتحاد السوفياتي يقوم على شكل هرمي . وفي أيام حكم ستالين كان الحكم فرديا دكتاتوريا . وفي هذه الايام يقع سكرتير الحزب الشيوعي على رأس الهرم . وعندما فجرت الولايات المتحدة الاميركية القنبلتين الذريتين على مدينتين في اليابان لم يستشر رئيس تلك الدولة الشعب الاميركي . أما أن يشارك السياسيين المحترفين ، في تحديد الاهداف التي ينبغي أن يخدمها العلم ، العلماء المتخصصون والمفكرون والادباء والفنانون والفلاسفة وكل من يهتم بمصير الانسانية ، ويفكر في هذا المصير بنزاهة وتجرد ، فأمر وقوعه محال وتنفيذه أشبه بالاحلام .. والقاعدة الهامة التي يجب ان يركز عليها المؤلف هي أن الرأسمالية والاشتراكية مبدآن فاسدان لا يحققان السعادة للبشرية . وقد ثبت بالادلة القاطعة تفاهتهما وفسادهما . ويجب أن تبحث البشرية عن مبدأ يرتفع بانسانية الانسان الى الذرى وتقضي على عناصر القلق والخوف والتنافس على المصالح وحب السيطرة والاستعلاء التي يكرسها هذان المبدآن . ولا يتوافر ذلك الا في الاسلام . وعند ذلك تزول النزعات القوية التي تهدد البشر صباح مساء . ولا بأس على سلطان المسلمين عند ذاك أن يحدد الاهداف التي ينبغي أن يخدمها العلم بمشاورة اهل الاختصاص . وتلك الاهداف ستكون في مصلحة البشر جميعا . وأول هدف سياسي لهذه الدولة هداية البشر بالاسلام دون اكراه أو ضغط أو تدمير .

اما ان يقترح المؤلف حلولا اشبه بحلول الحالمين وعلى واقع فاسد أناني يكرسه هذان المبدآن اللذان يظلان العلم والتكنولوجيا في العصر الراهن فزيادة في بؤس البشر وشقائهم وقلقهم .

ومع أن المؤلف يؤكد ان المنهج المتبع في علم يدرس الانسان لا بد أن يكون مختلفا عن ذلك الذي يتبع في علم طبيعي فانه يسمي البحوث التي تدرس الانسان بالطريقة العقلية علوما انسانية (١) . وقول المؤلف ان العلوم الانسانية ، ربما كانت ، في معظم حالاتها، تمر حتى الان بالمرحلة التجريبية التي تكدس فيها المعارف ، انتظارا للمرحلة التي تنضج فيها الى حد اكتشاف القوانين او المبادىء العامة ، خطأ شنيع . لان المؤلف نفسه يقول قبل هذه العبارة بأن الملاحظة تأتي بعدها مرحلة التجريب ، حيث توضع الظواهر في ظروف يمكن التحكم فيها ، مع تنويع هذه الظروف كلما أمكن (٢) . فهذه الظواهر التي توضع في ظروف يمكن التحكم فيها ، مع تنويع هذه الظروف كلما أمكن ، تنطبق على المادة

---

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٣١ ، ٣٥ .
(٢) انظر المصدر السابق : ص ٣٥ ، وقارن بما ورد في ص ٣٣ .

ولا تنطبق على الانسان مطلقا . فالتجارب التي يقوم بها علماء النفس والاستبيانات التي يقوم بها علماء الاجتماع لا تسمى تجارب علمية بالمعنى الدقيق ، بل هي ملاحظات وتكرار ملاحظات وحسب . لان الطفل الذي تجري التجربة عليه في مختبر علم النفس والناس الذي تجري الاستبيانات عليهم عند علم الاجتماع لا يوضعون في ظروف يمكن التحكم فيها ، ولا تنوع هذه الظروف ما أمكن . وانما تبقى ملاحظة وتكرار ملاحظات وحسب . وهذا يجعلني ألحق هذه العلوم ، علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم التربية بالافكار والثقافة وأسلها من مجموعة العلوم . ومما يدعم ما ذهبنا اليه ويضعف رأي المؤلف في هذا الموضوع قول المؤلف نفسه بأن دراسة الانسان هي في واقع الامر أعقد بكثير من دراسة الطبيعة ، لان العلاقة بين الاسباب والنتائج فيها شديدة التعقيد والتشابك ، على عكس الحال في دراسة الطبيعة ، حيث تسير هذه العلاقة دائما في خط واحد قابل للتحديد (١) .

وقول المؤلف نفسه ان الانسان لا يتصرف على سوابق ماضية وحسب ، بل يتصرف ايضا لانه يخطط لهدف او لمشروع في المستقبل . ولكن هذه صفة ينفرد بها الانسان ولا تعرفها الطبيعة ، وربما كانت هي التي أعطت الانسان مركزه الفريد في الكون . وقول المؤلف : « وربما كانت هي التي أعطت الانسان مركزه الفريد في الكون » لا يدل على الدقة في التفكير . فالانسان قطعا أكرم مخلوق عى وجه الارض . والله سبحانه وتعالى كرمه وخلقه في أحسن تقويم . كرمه بالعقل . ومع العقل توجد المشاعر ..، وغريزة التدين لا توجد الا في الانسان ..

أما الحيوانات والنباتات فلا تعقل . وكذلك المادة . وان مملكة من القرود تبلغ ألف قرد لا تستطيع أن تصنع طاولة صغيرة .

وقول المؤلف نفسه أيضا ان حصر الاسباب التي تتحكم في الظاهرة البشرية الواحدة « كانحراف أحد الاحداث مثلا » هو من الصعوبة بحيث يصعب اخضاع كل جوانب الظاهرة للتحليل العلمي الدقيق ، ويظل فيها على الدوام جانب مجهول أو لا يمكن التنبؤ به ، مما يجعل العلم عاجزا عن أن يحرز في مجال الظواهر البشرية نفس القدر من النجاح الذي يحرزه في مجال الظواهر الطبيعية (٢)

ويذكر المؤلف أن النظرة العلمية الى شؤون الحياة في ميادينها كافة هي وحدها التي تضمن للمجتمع ان يسير في طريق التقدم خلال القرن العشرين ، وان مجرد البقاء في المستقبل ، دون نظرة علمية واسلوب علمي في التفكير ، سيكون أمرا مشكوكا فيه . ففي الوقت الذي ينظر الى الاسلوب العلمي في التفكير نظرة التقديس ، يأتي بعد ذلك ليقرر أن الالة ، وهي نتاج العلم التطبيقي ، ليست قادرة على تحقيق السعادة للبشر ، أو تخليصه من الشقاء والمعاناة ، اذ أننا نعفي أنفسنا من مسؤولية اصلاح أوضاعنا، ونلقي بهذه المسؤولية على الالة (٣) .

---

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٢٥ .
(٢) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٢٧١ .
(٣) انظر المصدر السابق : ص ١٨٨ ـ ١٩٠ ، وقارن بما ورد في ص ١٦ .

وعندما يتحدث المؤلف عن ظاهرة استمرار الفكر الخرافي بأشكال مختلفة في المجتمعات الصناعية المتقدمة يقرر ان نوع الحياة التي تسود المجتمع الصناعي يشكل ضمانا مؤكدا يعصم المجتمع ، في مجموعه ، من أضرار التفكير الخرافي ، مهما كانت درجة انتشاره على مستوى الافراد أو الجماعات المنعزلة . ففي مثل هذه المجتمعات يظل المجرى العام للحياة خاضعا للعقلانية والترشيد والتخطيط المدروس ، أما الميول الخرافية فتتخذ شكلا فرديا لا يؤثر على هذا المسار العام . بل ان من الممكن القول ، بمعنى معين ، ان الحياة الصناعية المخططة الدقيقة هي ذاتها التي تفرض على مجتمعاتها من آن لاخر ، اللجوء الى ألوان من التفكير الخرافي . فانتشار الخرافات في هذه البلاد هو في أساسه « رد فعل » على العلم المتغلغل في صميم كيان المجتمع ، ومحاولة للتخلص من قبضة تلك العقلانية المحكمة التي تمسك بجميع جوانب الحياة ، عن طريق بعث عناصر لا عقلية من مكمنها اللاشعوري (١) .

والواقع ان هذا التعليل الذي أورده المؤلف عن ظاهرة استمرار الفكر الخرافي بأشكال مختلفة في المجتمعات الصناعية المتقدمة غير صحيح ، وباعث على الحيرة أكثر من الظاهرة .

فكيف يصح في العقل ان الحياة الصناعية التي تسود المجتمع الصناعي تعصمه في مجموعة من أضرار التفكير الخرافي ، وان الحياة الصناعية المخططة الدقيقة هي ذاتها التي تفرض على مجتمعاتها من آن الى اخر ، اللجوء الى ألوان من التفكير الخرافي ؟!

شيء معين يعصم مجتمعات معينة من اضرار شيء معين ، والشيء عينه يفرض على تلك المجتمعات المعينة اللجوء الى ألوان من ذلك الشيء المعين !

ولا جدال في ان هناك تفسيرا دقيقا لم يصل اليه المؤلف . وأعتقد أن التفكير الخرافي يطل برأسه على أي مجتمع لا يستطيع أفراده أن يفسروا كثيرا من الظواهر والحوادث تفسيرا صادرا عن الفكر المستنير .

والمجتمعات الصناعية المتقدمة في أوروبا وأميركا وروسيا السوفياتية تقدس الطريقة العلمية في التفكير أو الاسلوب العلمي في التفكير ، وتريد أن تجعل الطريقة العلمية في التفكير هي الاساس في التفكير . فهذه المجتمعات قد عكست الوضع الصحيح ووضعت العربة أمام الحصان . وبما أن كثيرا من الموضوعات في هذا الكون لا يمكن ان تبحث بالاسلوب العلمي في التفكير ، مثل المنطق والسياسة والتاريخ والفقه وحقيقة وجود الله والجن والملائكة ، فتبقى هذه الموضوعات التي تفرض ذاتها قطعا في تلك المجتمعات بدون تفسير دقيق أو تعليل مقنع . ومعنى ذلك ان هذه المجتمعات الصناعية المتقدمة فيها رقي في التفكير العلمي المحض ، وانحطاط في التفكير العقلي .

فعالم الفيزياء ، في البلاد الرأسمالية التي تفصل الدين عن الحياة ، قد يكون ملحدا أو يصلي لخشبة لا تضر ولا تنفع . فهو عميق التفكير في الفيزياء ومنحط التفكير العام الاساسي ، وهو الطريقة العقلية في التفكير .

---

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٧٤ ، ٧٥ .

وعالم الذرة ، في البلاد الاشتراكية السوفياتية التي تقول ان الكون مادة وحسب ، يقف وقفه التقديس امام ضريح لينين ، مع انه قد يكون اكثر عبقرية واخلاصا من لينين . فاذا كان هذا حال العلماء فما بالك بالعوام ؟!

ولا يمكن أن يتلاشى التفكير الخرافي من تلك المجتمعات الا اذا سادت الطريقة العقلية او التفكير العقلي المستنير . ولا يعني أن التفكير العقلي المستنير اذا هيمن على مجتمع صار كل افراده مفكرين ممتازين . فهذا ما لا سبيل اليه . ولكنه يضيق نطاق التفكير السطحي والتفكير الخرافي وكل الوان التفكير الهابط بشكل ملحوظ .

٢ ــ يقرر المؤلف الافكار التالية في أثناء حديثه عن شخصية العالم ، والعلم والاخلاق في العصر الحاضر كما يتصورهما ، اذ يقول :

لا جدال في أن العالم الذي يحارب من أجل حقيقة يؤمن بها عن اقتناع ، أو الذي يكرس حياته من أجل كشف يبدد ظلام الجهل ، أو يحقق للانسان مزيدا من السيطرة على الطبيعة ، هذا العالم يقف في صف واحد مع الانبياء والمصلحين الذين لم تكن حياتهم مكرسة ، في الواقع ، الا لاهداف مماثلة (١) .

من المسلم به اننا قد نجد علماء يفتقرون الى الروح الاخلاقية كما ينبغي أن تكون ، بل ، قد نجد منهم من ارتكبوا في حق الاخلاق أخطاء فادحة . ولدينا على ذلك مثال واضح في شخصية فرانسيس بيكون الذي كان رائدا من رواد الروح العلمية الحديثة في أوروبا ، مع انه لم يكن عالما . فهذا المفكر الفذ ، الذي أدرك منذ وقت مبكر طبيعة البحث العلمي الحديث .... كان انسانا لا اخلاقيا الى حد بعيد .... ولكننا نستطيع أن نقول ، من وجهة نظر أخرى ، انه لم يكن انسانا لا أخلاقيا تماما . فقد كانت أخطاؤه كلها تنتمي الى ميدان السلوك الشخصي في الحياة الخاصة أو العامة ، ولكنه كان في تفكيره العلمي شخصا اخلاقيا بكل ما تحمله الكلمة من معنى . فهو لم يكن يزيف الحقائق أو يجامل احدا في الحق ، ولم يكن يتردد في مهاجمة أقوى السلطات العلمية في عصره اذا تبين له انها عقبة في وجه المعرفة الجديدة التي يدعو اليها . وهو قد تحمل في سبيل ذلك تضحيات عديدة ، بل ربما كان جزء كبير من انحرافه ، على المستوى الشخصي ، راجعا الى رغبته في أن يحصل على منصب رفيع يساعده على تحقيق المشروعات العلمية الكبرى التي كان يحلم بها (٢) .

وهكذا يكون الجهد العلمي هو ذاته نوعا من الجهاد الاخلاقي ، ويكون التحلي بقدر معين من القيم الاخلاقية صفة أساسية للعالم ــ هذا طبعا اذا كان عالما بالمعنى الصحيح (٣) .

---

(١) التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٣٠١ .
(٢) التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .
(٣) انظر المصدر السابق ص ٣٠٢ .

الانتقال من الانفصال التام بين العلم والاخلاق الى التدخل الوثيق بينهما ، لم يحدث فجأة ، وانما حدث على مراحل متعددة ، ومهدت له ظروف كثيرة . وفي وسعنا أن نلخص أهم مراحل الانتقال هذه فيما يلي :

١ ــ في مطلع العصر الحديث انهار المثل الاعلى القديم للمعرفة ، وهو « العلم لاجل العلم » ، وبدأ ظهور مفهوم جديد للعلم ، يدور حول فكرة السيطرة على الطبيعة والوصول الى مزيد من التحكم في العالم الخارجي .

٢ ــ بعد فترة غير طويلة اخذ العلم يسعى الى تحقيق هذا الهدف نفسه في مجال الانسان ، اي أن يحقق ، بالنسبة الى عالمنا الداخلي ، نفس القدرة على الفهم ، وعلى السيطرة ، التي تحققت لنا بالنسبة الى الطبيعة .

٣ ــ حين اقترب العلم من ذلك المنبع الذي تصدر عنه القيم كلها ، اعني النفس الانسانية والمجتمع البشري ، كان لا بد أن يتداخل تأثيره مع تأثير الاخلاق .

٤ ــ وفي عصرنا الحاضر ازداد هذا التدخل وثوقا ... وهكذا تطورت الامور بحيث اصبحنا لا نجد مفرا من البحث في النتائج الاخلاقية للعلم ، واصبح العلم في عصرنا الحاضر قوة تؤثر في حياتنا ومسلكنا العملي ، لا مجرد ارضاء لحب استطلاعنا ، وزال الحد الفاصل بين وظيفة العلم في القاء الضوء على ما هو كائن ، ووظيفة الاخلاق في ارشادنا الى ما ينبغي أن يكون (١) .

ومع ان الاعتبارات السياسية تتحكم في العلم الحالي الى هذا الحد ، فان كثيرا من المجتمعات تطالب العلماء الا يتدخلوا في السياسة ، وتضع كثير من المؤسسات والجمعيات العلمية هذا الشرط على كل عالم مشتغل بها ... وهذا أمر مؤسف . لان معناه هو اننا نعمل منذ البداية على استبعاد المنهج العلمي من بحث الموضوعات التي تمس صميم حياة الانسان ، أعني الموضوعات السياسية والاجتماعية والاخلاقية (٢) .

واذا كان العلم في طبيعته الاصلية، يستهدف أساسا أن يزيد الانسان وعيا بانسانيته، عن طريق زيادة معرفته وتوسيع افقه الفكري ، فيبدو انه يتجه الان ، بعد أن احرز كل هذا القدر من التقدم ، الى عكس هدفه الاصلي ، اي الى اقامة حواجز لا يمكن عبورها بين الاشتغال بالعلم وبين المنابع الاصيلة للحياة الانسانية (٣) .

---

(١) التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ .
(٢) انظر المصدر السابق : ص ٣١٠ .
(٣) انظر المصدر السابق : ص ٣١٥ .

والان ، يأتي دورنا في تفنيد هذه الافكار وبيان فسادها وتفاهتها ، فنقول :

لقد سبق ان اكد المؤلف أن الالة ، وهي الفن التطبيقي للعلم ، ليست قادرة على تحقيق السعادة للبشر ، أو تخليصه من الشقاء والمعاناة (١) .

وسبق أن ذكر المؤلف رايا شائعا مألوفا يؤكد على ان العلم محايد بين الخير والشر . ولقد دافع بعض الفلاسفة والمفكرين عن هذا الموقف على أساس ان البحث عن الحقيقة لذاتها هو أمر محايد اخلاقيا ، أو لا شأن له بالاخلاق . وزكى هذا الدفاع على المستوى الفلسفي ، موقف مذهب فلسفي معاصر ، هو « الوضعية المنطقية » ، وهو مذهب يؤمن بأن القيم سواء أكانت اخلاقية أم جمالية ، تخرج عن نطاق العلم ، الذي يجب أن يكون محايدا ، على حين أن القيم تعبر بطبيعتها عن تفضيلات شخصية (٢) .

ومع ذلك راح المؤلف يربط ربطا واهيا بين العلم والاخلاق أو ما يسميه اخلاقية العلم والعلماء الى درجة جعل العالم الذي يبحث عن الحقيقة أو يكرس حياته من اجل كشف يبدد ظلام الجهل ، يقف في صف واحد مع الانبياء والمصلحين الذين لم تكن حياتهم مكرسة ، في الواقع ، الا لاهداف مماثلة . ومن الغريب ان المؤلف يصف العلماء المشتغلين بالبحث العلمي بأنهم اشخاص ذو انسانية ناقصة ، وابعاد ضيقة : فهم ينمون الى أقصى حد ملكة واحدة من ملكاتهم ، في ميدان محدود جدا ، بينما تظل بقية الملكات بلا نمو ، وربما ازدادت تخلفا . ويورد المؤلف عبارة بعض المفكرين الذين أطلقوها على الكثيرين من المشتغلين بالبحث العلمي وهي « الهمجي المتعلم » ، وهو شخص لم تكتمل صفات الانسان فيه ، لانه لا يحمل من زاد الدنيا الا المعلومات المتعلقة بميدان ضيق ربما لم يكن الانسان العادي قد سمع عنه في حياته . ومما يزيد من فداحة المشكلة ، أن امثال هؤلاء المتخصصين المحدودي الافق هم ، في الاغلب ، أناس مترفعون عن غيرهم ، يتحدثون فيما بينهم لغتهم الغامضة الخاصة ، ويتصورون ان تخصصهم فيها يكسبهم امتيازا على على كل من عداهم ، مع انهم لو خرجوا عن ميدانهم الاصلي قليلا لاصبحوا مكشوفين تمام أمام غيرهم . أمثال هؤلاء « العلماء الجهال » قد يكونون احيانا أسوأ من الجهلاء غير المتعلمين ، لان الاخيرين على الاقل ليست لديهم ادعاءات ، على حين أن الاولين يتصورون أن معرفتهم في ميدانهم الخاص تبيح لهم أن يعدوا انفسهم « عارفين » في الميادين الاخرى . وكثيرا ما نجد هؤلاء الاشخاص يكونون مادة طريفة لسخرية مؤلفي الروايات والمسرحيات الهزلية ، حين يصورونهم وقد تظاهروا بمعرفة كل شيء ، وهم في الواقع لا يفقهون شيئا مما يخرج عن ميدانهم الخاص ، أو حين يسخرون من ميلهم الى تطبيق لغة تخصصهم واصطلاحاته الفنية على ميادين لا شأن لها به على الاطلاق ،

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ١٩٠ .
(٢) انظر المصدر السابق : ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠ .

أو يعجزون عن مواجهة موقف من مواقف الحياة المعتادة ، لانهم لم يعرفوا كيف يلائمون بين عقولهم التي تشكلت في قالب ضيق واحد ، وبين مقتضيات هذه الحياة (١) .

والواقع ان المؤلف يتخبط في أفكاره تخبطا شنيعا ، ويربط بين شيئين لا رابط بينهما البتة . ومعلوم أن سلوك الانسان في الحياة مع الناس أو أخلاقه وسجاياه انما ترتبط بمفاهيمه وقناعاته التي كونها عن الكون والانسان والحياة ، وليس للعلم اي تأثير على السلوك والاخلاق . والدليل على ذلك أن عالمين في الفيزياء أحدهما رأسمالي والثاني اشتراكي ماركسي يختلف سلوكهما واخلاقهما مع انهما متماثلان في التخصص العلمي . الاول يكون سلوكه وفقا للمفاهيم الرأسمالية التي يؤمن بها ، والثاني يكون سلوكه وفقا للمفاهيم الاشتراكية الماركسية التي يؤمن بها .

والانسان الرأسمالي بعامة تبقى أفكاره رأسمالية عندما تنقله طائرة حربية أو مدنية ، وكذلك الانسان الاشتراكي الماركسي تبقى أفكاره اشتراكية ماركسية عندما تنقله طائرة حربية أو مدنية . مع ان الطائرة هي تطبيق فني عملي للعلم ، وان الطائرة التي تصنع في البلاد الرأسمالية تسير على نفس القوانين والحقائق العلمية التي تسير عليها الطائرة المصنوعة في البلاد الاشتراكية الماركسية . وكذلك الانسان المسلم يبقى مسلما عندما تنقله طائرة حربية أو مدنية صنعت في بلاد رأسمالية أو بلاد اشتراكية .

ومعلوم أن العلوم التجريبية في عصرنا كثيرة . فاذا وافقنا المؤلف على أفكاره التي تقول بأخلاقية العلم والعلماء ، أو الربط بين العلم والاخلاق ، فهل يعني أن هناك أخلاقا كيميائية ، وأخلاقا حيوانية ، وأخلاقا نباتية ، وأخلاقا هندسية ، وأخلاقا فيزيائية ، وأخلاقا ذرية ، وأخلاقا فلكية ؟! لاننا اذا ربطنا بين العلم والاخلاق ، فيجب أن نربط بين العالم المختص بذلك العلم وبين الاخلاق . فالعالم في الصواريخ اخلاقه صاروخية . والعالم في الحيوان أخلاقه حيوانية ، والعالم في الهندسة أخلاقه هندسية ، وهكذا . . .
والحق ان المؤلف أساء الى الانبياء عليهم صلوات الله وسلامه حين جعل العلماء الذين يقفون في صف واحد مع الانبياء ، الذين لم تكن حياتهم مكرسة ، في الواقع ، الا لاهداف مماثلة .

وقد وصف المؤلف كثيرا من العلماء المشتغلين بالبحث العلمي بأنهم أشخاص ذوو انسانية ناقصة ، وأفق ضيق ، وهمج متعلمون ، ومترفعون عن غيرهم ، وعلماء جهال ، ومغرورون ، وعاجزون عن مواجهة موقف من مواقف الحياة المعتادة . ومعنى ذلك ان هذه المزايا والخصال والصفات تنسحب أيضا على الانبياء عليهم الصلاة والسلام لانه جعل هؤلاء العلماء يقفون في صف واحد مع الانبياء . أما واقع أنبياء الله تعالى فهم رسله الى البشر ، وهم بشر ، لكنهم أنقى البشر . ولولا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، لما عرفنا قصص الانبياء كما وقعت حقا . لان قصصهم قبل البعثة النبوية تعرضت الى عبث وتحريف كبيرين . ولولا القرآن الكريم ما عرفنا حقيقة الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه . حقيقة الانبياء انهم خير البشر .

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٣٠١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ .

لا يختارون أنفسهم للرسالة . انما يختارهم الله سبحانه وتعالى . يختارهم رب العزة لعلمه السابق انهم أنقى من في الوجود .

وهم لا يخطئون فيما يرسلهم به الله ، ولا يتقولون على الله .

ومنهم اولو العزم الذين يصبرون على أذى الجاحدين ويتحملون ما لا تتحمله الجبال. وهم معصومون عن الكبائر والصغائر قبل البعثة وبعدها .

والله يؤيدهم بالمعجزات الواضحات والخوارق ليصدقهم قومهم الذين أرسلوا اليهم. وهم اكثر الناس عبادة وتقربا الى الله سبحانه وتعالى . وخاتم الانبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم النبي الامي . ومعجزته الباقية الخالدة هي القرآن الكريم كتاب الاسلام الاول .

واذا كان الله سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده الكفر . واعد للكافرين جهنم خالدين فيها . واعد للمؤمنين جنات خالدين فيها . فالكافر تأبى عدالة الله أن يساويه بأي مؤمن ، ولو كان الكافر أعلم أهل زمانه . والذي يكفر بالخالق الذي يستحق العبادة وحده لا يمكن أن يبتغي بعلمه التجريبي خدمة الانسانية حقا . والله سبحانه وتعالى لم يخلق الجن والانس الا ليعبدوه . ومقياس القرب من الله يوم القيامة ليس العلم التجريبي ، وانما طاعة الله والاخلاص له والبعد عما نهى عنه .

ولن ينفع المشتغلين بالبحث العلمي يوم القيامة علمهم اذا كانوا كفارا .

ولن يضر الجاهلين بالبحث العلمي يوم القيامة جهلهم ان كانوا مسلمين .

فالقضية الاساسية قضية اسلام أو كفر . ومع ذلك فالعالم الطبيعي ان كان مسلما يتقرب بعلمه التجريبي الى الله تعالى ، لان ذلك فرض كفاية على المسلمين ، ويكون عند الله افضل من المسلم غير العالم اذا تساويا في درجة الايمان . والعلماء ورثة الانبياء . وهم العلماء بالشريعة .

وفي هذا المقام يجدر بنا أن نشير الى فكرة الحافز على العمل عند المسلم والرأسمالي والاشتراكي الماركسي . والحافز على العمل عند المسلم هو تحقيق قيمة العمل ذاته ، واضعا نصب عينيه رضا الله تعالى في كيفية العمل وادائه والاخلاص فيه وعدم الغش والاصل في الافعال عند المسلم التقيد بأحكام الشرع . وبذلك يحقق قيمة مادية وقيمة روحية .

والحافز على العمل عند الرأسمالي هو المنفعة . والاخلاق عنده تقوم على المنفعة. فهو يصدق لان الصدق يجلب له منفعة . واذا جلب اليه الصدق ضررا فانه يهجر الصدق ويكذب . والمسلم يصدق لان الله سبحانه وتعالى أمره بأن يصدق . واذا كذب فانه يأثم ولا تقبل شهادته حتى يثبت للقاضي انه هجر الكذب وصار صادقا . والصدق شعار الاسلام . وقس على ذلك سائر الفضائل .

والحافز على العمل عند الاشتراكي الماركسي هو ذات العمل المادي . ويختلط ذلك بالمنفعة التي نراها عند الرأسمالي .

فالرأسمالي والاشتراكي الماركسي كافران . الاول يفصل الدين عن الحياة . والثاني ينفي أن الله واجب الوجود لانه يؤمن بأن الكون مادة وحسب . فكيف يقف العالم الرأسمالي او الاشتراكي في صف واحد مع الانبياء ؟!

وكيف تكون حياة هؤلاء العلماء الذين يتصفون بصفات ومزايا ذكرها المؤلف مكرسة في الواقع لاهداف مماثلة لاهداف الانبياء عليهم السلام ؟!

وانني أرى العجب العجاب في قول المؤلف ان فرانسيس بيكون الفيلسوف والمفكر الانجليزي كان انسانا لا أخلاقيا الى حد بعيد ، وانه لم يكن انسانا لا أخلاقيا تماما . فقد كانت أخطاؤه كلها تنتمي الى ميدان السلوك الشخصي في الحياة الخاصة أو العامة، ولكنه كان في تفكيره العلمي شخصا اخلاقيا بكل ما تحمله الكلمة من معنى . والذي يبدو أن قول المؤلف هذا يدعم ما ذهبنا اليه من أن الرأسمالي يصدق لاجل المنافع ويكذب لاجلها . وفرانسيس بيكون وسائر الاوروبيين ومن سار على دربهم يسيرون على أساس سياسة ميكافيلي « الغاية تسوغ الوسيلة » وهي شعار المبدأ الرأسمالي. ومعلوم ان الوسيلة جزء من الغاية . فالوسيلة اذا كانت منحطة سافلة فالغاية تحمل هذه الصفة وان كانت في الظاهر نبيلة . وكذلك العكس . والوسيلة الى الحرام حرام . ونستطيع أن نقول ان فرانسيس بيكون منحط التفكير من ناحية التفكير العقلي الاساسي ، وعميق التفكير من ناحية التفكير العلمي الفرعي . فهو منحط في العلم الاساسي ، وراق في أسلوب التفكير العلمي الفرعي . وقد سبق أن ذكرنا حيدة العلم، وبعده عن الاخلاق بعد السماء عن الارض . فالعالم عندما يبحث المادة في المختبر فانه يقف أمام مادة جامدة لا تعقل . فلا مجال للمشاعر والعواطف والاخلاق في هذا المقام، وكذلك الحال بالنسبة الى التكنولوجيا .

والجهد العلمي ليس نوعا من الجهاد الاخلاقي ، لان الجهد العلمي شيء ، والاخلاق شيء آخر . والاخلاق في الواقع مرتبطة بالافكار الاساسية عن الكون والانسان والحياة . وليس التحلي بقدر معين من القيم الاخلاقية صفة أساسية للعالم .

لان قول المؤلف « بقدر معين » لا يدل على شيء محدد . فما هذا القدر المعين ؟! أما سمات التفكير العلمي وخصائصه فهي تفرض نفسها على جميع علماء الارض التجريبيين. ومع ذلك تختلف أفكار العالم المسلم وأخلاقه عن أفكار العالم الرأسمالي والاشتراكي الماركسي وأخلاقهما . فالعلم عام والفكر والخلق خاص . وهذا الاختلاف بين الناس العاديين وليس بين العلماء فقط . واسلوب الانتاج عند الاشتراكي الماركسي هو الذي يحدد الافكار والانظمة والاخلاق . والمنفعة وحدهما هي التي تتحكم بأخلاق الرأسمالي سواء أكان عالما أم جاهلا . أما أخلاق المسلم والاخلاق انفصال تام أو تداخل وثيق أو غير وثيق في يوم من الايام . ولو أن المؤلف قال ان التفكير العقلي هو الذي يوجه سلوك الانسان لكان قولا صائبا . ونعني بذلك ما يكونه الانسان من مفاهيم وقناعات .

وقول المؤلف : « في مطلع العصر الحديث انهار المثل الاعلى القديم للمعرفة ، وهو « العلم لاجل العلم » خطأ فاحش . لان هذا المثل ان كان يصح أن يطلق على الاغريق

فلا يصح أن يطلق على المسلمين . العلم عند المسلمين للعمل به وليس لاجل العلم . فقد علم الاسلام المسلمين ان يعملوا بأحكام الشرع وبالعلم التجريبي المتواضع بالقياس الى العصر الراهن . وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يهبه علما نافعا ويعوذ به من علم لا ينفع . والعلم النافع هو العلم الذي يعمل به قطعا ويكون نافعا للناس . وقال الرسول الكريم : (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له) . ومعنى ذلك انه يحث المسلمين على القيام بتوفير العلوم النافعة في الدنيا واستمرار نفعها بعد موت من يقوم بها لان في ذلك مثوبة عند الله . واذا كان الاوروبيون يذهبون في العصر الراهن الى المثل الاعلى الجديد « العلم لاجل العمل » فان المسلمين كانوا أرقى منهم عندما يؤكدون شعار « العلم لاجل العمل النافع » . لان العمل الناتج عن علم ينتفع به أحيانا وقد لا ينتفع به في أحيان كثيرة . أما الاسلام فانه يحث أتباعه على العمل الناتج عن علم ينتفع به . قال الله تعالى (.... فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال) .

والمؤلف يألم لان كثيرا من المؤسسات والجمعيات العلمية تطالب العلماء بأن يتدخلوا في السياسة . وهو شرط أساسي لموضوعية العالم . وفي ذلك استبعاد للمنهج العلمي عن بحث الموضوعات السياسية والاجتماعية والخلقية .. وقد ذكرنا أن الموضوعات الاجتماعية والخلقية والسياسية لا تبحث بالطريقة العلمية في التفكير ، وانما بالطريقة العقلية .

فالقرارات التي يتخذها رئيس الولايات المتحدة الامريكية تقوم على أساس رعاية شؤون الشعب الامريكي في تلك الولايات في الداخل والخارج حسب النظام الراسمالي وحده . وان كانت هناك أجهزة علمية دقيقة تقدم المعلومات لذلك الرئيس قبل اتخاذ تلك القرارات . فهذه الاجهزة بمثابة الاعصاب في الجسم ، واتخاذ القرارات حسب النظام الراسمالي بمثابة دماغ الانسان . هؤلاء العلماء الذين وصفهم المؤلف بأنهم ذوو انسانية ناقصة ، وافاق ضيقة محدودة ، والترفع عن غيرهم ، والغرور الفظيع ، عاجزون عن القيام بالاعمال السياسية لعكوفهم على البحث العلمي ، واذا استطاعوا ذلك فانهم يضرون شعوبهم اكثر مما يفيدونها .

والعلم لا يستهدف أساسا أن يزيد الانسان وعيا بانسانيته ، عن طريق زيادة معرفته وتوسيع أفقه الفكري . لان العلم اسلوب في التفكير يزيد الانسان معرفة بقوانين المادة وخصائصها وحسب . وليس من التجاوز اذا قلنا ان تقديس أوروبا وأميركا وروسيا السوفياتية للاسلوب العلمي في التفكير جعل الانسان في هذه البلاد اكثر وعيا ونموا في باب المعرفة العلمية وأكثر جهلا بانسانيته ودوره على هذا الكوكب .

فالطائرات الحربية الامريكية الحديثة ، التي هي نتاج العلم التطبيقي ، كانت تلقي مئات الاطنان يوميا من المواد المتفجرة والمحرقة على سكان فيتنام الشمالية . ومع ذلك فان تلك الاعمال الحربية التي استعانت بالعلم المعاصر تدل دلالة قاطعة على هبوط الانسان المعتدي فكريا ومن ثم جهلا بانسانيته . وصعود التكنولوجيا الامريكية المعاصرة الى القمر يدل على بلوغهم ذروة العلم التطبيقي . ومع ذلك تزيد تلك الدولة من غطرستها واستعبادها للشعوب وتحكمها باقتصاد العالم واوضاعه السياسية . ثم يناقض المؤلف نفسه بنفسه ، اذ يعلن أن العلم المعاصر ، مع تقدمه ، يتجه الان الى عكس هدفه الاصلي ، أي الى اقامة حواجز لا يمكن عبورها بين الاشتغال بالعلم وبين المنابع الاصيلة للحياة الانسانية . والواقع انه لم يكن اتصال بين الاشتغال بالعلم وبين المنابع الاصيلة للحياة الانسانية في البداية حتى تقام الحواجز في الوقت الراهن بينهما .

٣ — في تضاعيف حديث المؤلف عن مشكلة الموارد الطبيعية وفي خاتمة الكتاب يعرض لهذه الافكار والاراء ، اذ يقول :

المجتمع البشري في ظل العلم والتكنولوجيا بحاجة الى التفكير جديا في اقامة نوع من الحكومة العالمية التي تشرف على شؤون العالم وفي ذهنها مصالح الجميع ، لا مصالح فئات أو دول معينة وحسب (١) .

النتيجة التي يؤدي اليها مسار التفكير العلمي ، في رحلته الطويلة الشاقة ، هي توحيد الانسانية . وكل العوامل التي تقف حائلا دون هذا التوحيد تتعارض مع الطبيعة الحقيقية للعلم ، ومن ثم فان تقدم التفكير العلمي ينبغي أن يزيحها جانبا آخر الامر (٢) .

في نفس الوقت الذي يؤكد فيه الناس عالمية العلم ، تظهر لديهم اتجاهات تتحدى هذا الاعتقاد الاساسي ، وتؤكد أن النزعة القومية ما زالت مسيطرة على عقول الناس في في هذا المجال بدوره (٣) .

ان كثيرا من مظاهر العلم ما زالت تتأثر بنزعات مضادة للنزعة العالمية ، ومع ذلك فان العالم يتجه الى التوحد بفضل العلم . فالتكنولوجيا التي هي نتاج مباشر للعلم ، خلقت عالما تتقارب فيه المسافات ، وتتشابه فيه الافكار والعادات ، وتهدم فيه بالتدريج كل الحواجز التي تفرق بين البشر (٤) .

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٢٥١ .
(٢) انظر المصدر السابق : ص ٣٢٣ .
(٣) انظر المصدر السابق ص ٣٢٧ .
(٤) انظر المصدر السابق ص ٣٣٠ .

ان توحد العالم بفضل التقدم العلمي ليس هدفا مرغوبا فيه وحسب ، بل هو هدف لا غناء عنه من اجل بقاء البشرية . والمشكلات الخطيره التي يواجهها العالم في الوقت الراهن تشير كلها الى اتجاه واحد للحل ، هو الاتجاه العالمي (١) .

وأيا ما كان الامر ، فمن المؤكد اننا لا نستطيع في عصرنا الحاضر أن نفصل على نحو قاطع بين العوامل الايديولوجية والعوامل العلمية والتكنولوجية ، لان التأثير بين الطرفين متبادل (٢) .

وهكذا نستطيع ان نقول ، مرة اخرى ، ان العالم يتجه الى التوحد بفضل العلم ، حتى لو اخذنا بالراي القائل لن يقرره الا الصراع الايديولوجي (٣) .

والواقع انه لا يجوز ان نطلق على العالم المجتمع البشري . لان المجتمع عبارة عن افراد بينهم علاقات معينة. والمجتمع السوفياتيهو غير المجتمع الامريكي . لان العلاقات بين الافراد تحددها الافكار الرئيسية والفرعية في المجتمع والانظمة والمشاعر المنبثقة عنها . والافكار في موسكو غير الافكار في واشنطن . وكذلك الانظمة والمشاعر . والافكار في موسكو وكذلك الانظمة تختلف قليلا عن الافكار والانظمة في بكين مع انهما تطبقان النظام الاشتراكي الماركسي . ومع ان النظام الراسمالي يطبق في لندن وواشنطن الا ان المصلحة الوطنية والقومية تقضي في احيان غير قليلة أن تكون لندن على خلافمع واشنطن . ومع ان بلاد المسلمين يطبق عليها النظام الراسمالي والنظام الاشتراكي بالقوة فالوضع مختلف عن واشنطن ولندن وموسكو وبكين لان الافراد مسلمون ، والافراد هناك رأسماليون او اشتراكيون ونصارى وبوذيون لا تمنعهم ملتهم من الرضا بالرأسمالية أو الاشتراكية .

ولو قال المؤلف المجتمعات البشرية لكان قوله صحيحا . ويبدو ان المؤلف تبنى أفكار بعض المفكرين الغربيين في دعوته هذه ومنهم هربرت سبنسر المفكر الانجليزي .

والدعوة الى اقامة حكومة عالمية تشرف على شؤون العالم وفي ذهنها مصالح جميع البشر دعوة تنفيذها محال واقعا وشرعا .

اما الواقع الدولي فيؤكد ان هناك معسكرين يسيطران على العالم . الاول : المعسكر الراسمالي الغربي وتتزعمه الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الثانية والثاني : المعسكر الاشتراكي الماركسي وتتزعمه روسيا السوفياتية . وان هاتين الدولتين تهيمنان وتسيطران على معظم دول العالم ، وتقتسمان الغنائم والارباح مع أن بينهما خلافات فرعية تطفو أحيانا على السطح وترسب أحيانا في القاع .

---

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٣٣١ .
(٢) انظر المصدر السابق : ٣٣٢ .
(٣) انظر المصدر السابق : ص ٣٣٣ .

ولو أن الحكومة العالمية تحققت جدلا لكانت هاتان الدولتان هما المسيطرتين على مقاليد الامور في هذه الحكومة المزعومة . وان بعض الدول الرأسمالية تقف في وجه الزعامة الاميركية للمعسكر الرأسمالية مثل بريطانيا وفرنسا . وكذلك تقف بكين ومعها ألبانيا في وجه الزعامة الروسية للمعسكر الاشتراكي الماركسي .

وهناك أمر قد يحدث في المستقبل القريب او البعيد وهو أن المسلمين الذين يحملون أفكارا هي أرقي الافكار اطلاقا على وجه الارض قد يتخلصون من السيطرة الراسمالية ويكونون معسكرا ثالثا هو المعسكر الاسلامي .

وقد كانت الدولة الاسلامية هي الدولة الاولى في العالم خلال قرون عديدة .

اما الواقع الشرعي فيؤكد على أن عداء الكفار للمسلمين مستمر الى أن يرث الله الارض وما عليها . والصراع والعداء قائمان حتى كتابة هذه السطور . والرسولمحمد صلى الله عليه وسلم يؤكد على أن الجهاد ماض الى يوم القيامة . والعداء بين اليهود وبين النصارى قائم مع وجود الولاء والمساندة في أيامنا وفي كثير من المراحل التاريخية. والعداء بين طوائف اليهود قائم مع وجود التلاحم أمام انعرب في الوقت الراهن .

والعداء بين طوائف النصارى قائم . ويكفي أن نشير الى أن حربين عالميتين وقعتا في هذا القرن مات فيهما ملايين النصارى .

فالحكومة العالمية التي يؤكد المؤلف على وجودها محال وقوعها عمليا ونظريا . ولو أن المؤلف اكد على ضرورة منع حدوث حرب عالمية جديدة لكانت فكرته مفيدة للبشر جميعا . ومن الممكن تحقيقها . والحروب المحدودة لا يمكن القضاء عليها بين البشر ومنعها .

والنتيجة التي يؤدي اليها مسار التفكير العلمي ، في رحلته الطويلة الشاقة ليست توحيد الانسانية أو عدم توحيدها . لان الرابطة تربط الانسان بالانسان ربطا صحيحا ومتينا هي الرابطة المبدئية .

أما مسار التفكير العلمي فلا أثر له في توحيد الانسانية أو تفرقها من قريب أو بعيد . والدليل على ذلك أن مسار التفكير العلمي في بكين وموسكو وواشنطن ولندن وباريس واحد . ومع ذلك فلم يوحد مسار التفكير العلمي هذه العواصم الكبرى . والفكر وحده هو الذي يوحد الشعوب ويجعلها أمة واحدة كالامة الاسلامية والامة الرأسمالية والامة الاشتراكية الماركسية .

والطبيعة الحقيقية للعلم هي كونها بحثا في المادة المحسوسة وحسب ، التي تخضع للملاحظة والتجربة والاستنباط ، وان النتيجة التي يتوصل اليها صحيحه فيها قابلية الخطأ . وهذه الطبيعة الحقيقية للعلم لا تؤدي الى توحيد الانسانية ولا تقف حائلا دون هذا التوحيد . وتقدم التفكير العلمي عاجز عن ازاحة العوامل التي تقف حائلا دون هذا التوحيد . لانها عوامل فكرية وليست علمية .

وأما عالمية العالم فصحيحة . لان العلم عام وطبيعته واحدة . وتستطيع أية أمة أن

تأخذ العلم عن أية امة أخرى دون ان يؤثر ذلك على افكارها وحضارتها . أما الافكار والحضارة فهي خاصة بكل امة . ولا يمكن أن تنقل الامة أفكارا وحضارة جديدة اليها الا اذا حصلت عندها القناعة بصحة هذه الافكار والحضارة ورقيها وسموها بالقياس الى افكارها وحضارتها القديمة . أما سيطرة الافكار والحضارة الغربية على المسلمين فلا تعني الرقي والسمو فضلاعن الصحة ، بل بدافع الغلبة والاستعمار وهبوط التفكير عند المسلمين .

اما النزعة القومية فهي مصاحبة لظهور الفكر الراسمالي في أواخر القرن الثامن عشر وظهور الفكر الاشتراكي الماركسي وسيطرته على مقدرات روسيا القيصرية في الربع الاول من القرن العشرين ، ومصاحبة للتقدم العلمي في القرن التاسع عشر والعشرين. فالنزعة القومية وبلورة الافكار الرأسمالية والاشتراكية الماركسية والتقدم العلمي برزت وظهرت الى ارض الواقع وسارت متعانقة معا في وقت واحد . وبذلك نستطيع أن نعد قول المؤلف في هذا الموضوع خطأ فاحشا ما كان مدفوعا الى أن يقع فيه .

وليس غريبا ان تتأثر كثير من مظاهر العلم بنزعات مضادة للنزعة العالمية ، بل الغريب أن يحدث عكس ذلك . لان العلم في روسيا السوفياتية مثلا موجه من الناحية الاشتراكية الماركسية ومن الناحية القومية . وقس على ذلك واقع العلم في سائر البلاد المتقدمة علميا وتكنولوجيا .

والتكنولوجيا وان خلقت عالما تتقارب فيه المسافات مع انها ثابتة ولكن لا تتشابه فيه الافكار والعادات . لان العادات انما تقوم على المفاهيم والقناعات والافكار . والافكار والعادات واحدة عند شعوب الامة الواحدة . ولا تأثير للعلم ولا للتكنولوجيا على الشعوب في تشابه الافكار والعادات أو تنافرها وتباعدها . والعلم والتكنولوجيا عاجزان عن هدم الحواجز التي تفرق بين البشر تدريجيا أو طفرة ، بدليل انهما موجودان ومتقدمان ومع ذلك فالحواجز قائمة عند الامة الواحدة في العصر الراهن .

ومحال أن يتوحد العالم بفضل التقدم العلمي . ولقد ذكرنا أن الفكر وحده هو الذي يوحد الشعوب ويجعلها أمة واحدة . ومع ذلك فالاسلام الذي انتشر ما بين الصين والاطلسي بسرعة مذهلة لم يوحد البشرية في دولة واحدة ، لحكمة ارادها الله سبحانه وتعالى ، اذ يقول : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم..) (١). والاسلام دين سماوي من لدن حكيم عزيز لطيف خبير . من عند الله الذي خلق من ضمن ما خلق عقول الذين بلوروا الفكر الرأسمالي والفكر الاشتراكي الماركسي . فاذا كان الذي في ذروة الرقي لم يستطع توحيد البشرية جمعاء في دولة واحدة لحكمة أرادها الله سبحانه اقادر الذي هو في الحضيض أن يحقق ذلك ؟! والقضية الكبرى لا تكون في بقاء

(١) سورة المائدة ، الآية ص ٤٨ .

البشرية اي بقاء . فهذا البقاء فيه سيد ومسود ، أبيض واسود ، قائد ومقود ، مستغل ومستغل . بل القضية الكبرى أن تبقى البشرية وفيها مبدأ يدعو بقوة الى رقي الانسان كما أراد الله . أن يرجع الاسلام من جديد ليقف أمام هذين النظامين ، الرأسمالي والاشتراكي الماركسي اللذين يقومان على المنفعة والمادة ، ويدفعان البشرية الى الصراع والتنافس والسيطرة والشقاء المقيم ، ليلجمهما ويكبح جماحهما . وهذه هي القضية المصيرية للبشر . واذا لم يتحقق ذلك فالاستمرار في الشقاء والتعاسة والقلق واقع ومقيم . أما المشكلات الخطيرة التي يواجهها العالم في الوقت الراهن مع انها تحل ظاهرا عن طريق مجلس الامن وهيئة الامم المتحدة ، فالواقع يؤكد أن الدول الكبرى ومنها اميركا وروسيا السوفياتية ، هي التي تخطط وتجعل الحلول على هواها .

والواقع ان العوامل الايديولوجية او المواقف الفكرية هي التي تؤثر في العوامل العلمية والتكنولوجية وليس العكس . لان القاعدة الفكرية التي تقوم عليها المواقف الفكرية او العوامل الايديولوجية ثابتة لا تتغير ، بينما نجد قوانين العلم وحقائقه غير ثابتة وغير نهائية . فالتأثير بين الطرفين ليس متبادلا .

٤ ـ في اثناء حديث المؤلف عن ضرورة الاخذ بالاسلوب العلمي في التفكير وموقف العالم العربي من هذه القضية الحيوية ، يؤكد على هذه الافكار والاراء ، اذ يقول :

موضوع التفكير العلمي هو موضوع الساعة في العالم العربي في اعتقاد المؤلف .

ومع اننا لا نكف عن الزهو بماضينا العلمي المجيد ، ولكننا في حاضرنا نقاوم العلم اشد مقاومة (١) .

ان المعركة التي يشنها الفكر المتخلف على كل من يدعو الى المنهج العلمي في التفكير العلمي ، ستقف في وجه جهودنا من أجل اللحاق بركب العصر ، بل ستلقي ظلالا من الشك حول مدى اخلاصنا في التغني بأمجاد « ابن حيان » و « الخوارزمي » و « ابن الهيثم » و « البيروني » ، الذين كانوا يقفون في الصف الاول من العقول التي تفكر بالاسلوب العلمي في عصورهم (٢) .

هذه السمة « التراكمية » التي يتسم بها العلم هي التي تقدم الينا مفتاحا للرد على انتقاد يشيع توجيهه ، في بلادنا الشرقية على وجه الخصوص ، الى العلم ، وهو الانتقاد الذي يستغل تطور العلم لكي يتهم المعرفة العلمية والعقل العلمي ، بالنقصان. فمن الشائع أن يحمل أصحاب العقليات الرجعية على العلم لانه متغير ، ولان حقائقه

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٨ ، ٩ .
(٢) انظر المصدر السابق : ص ١٠ .

محدودة ، ولانه يعجز عن تفسير ظواهر كثيرة ، وهم بذلك يفتحون الباب أمام أنواع اخرى من التفسير الخارجة عن نطاق العلم او المعادية له (١) .

في بلادنا العربية يتخذ التفكير الخرافي شكل العداء الاصيل للعلم والعقل . والفرق واضح بين هذا الاسلوب في الفكر الخرافي وبين اسلوب تلك المجتمعات التي مرت بتجربة التفكير العقلي حتى أعلى مراتبها ، والتي يحاول بعض أفرادها ان يرتدوا عن هذه التجربة « من موقع الاندماج فيها » ، لا من موقع الجهل بها أو الخوف منها أو العجز عن تحقيقها (٢) .

ونحن ثالثا نعيش في عصر أصبح فيه الاخذ بالاسلوب العلمي في الحياة مسألة حياة أو موت بالنسبة الى المجتمع . فلماذا اذن يحاول الكثيرون ان يعيدوا التجربة المريرة للكنيسة الغربية مع الخرافة وضد العلم ؟! ولماذا لا تتكاثف الجهود من أجل دعم التفسير الديني وتأكيده على محاربة الخرافة وتأييد العلم ؟! (٣) .

أما العقبة الحقيقية فتتمثل في أولئك الذين ينكرون دور العقل ، أو يقللون من أهميته، ويضيقو المجال الذي ينطبق عليه ، وذلك لحساب تلك القوى الاخرى التي قد يسمونها بالحدس أو الغريزة أو صورة الحياة أو غير ذلك من الاسماء .

وما نلمسه حولنا من عجز العقل عن حل مشكلات كثيرة لا يثبت على الاطلاق ان العقل في ذاته قاصر (٤)

في الوقت الذي أصبحت فيه البلاد المتقدمة تشعر بخوف حقيقي من جراء النمو السريع للبحث العلمي ، وتفكر في وسائل ايقاف هذا التسارع المذهل ، نعاني نحن من نوع عكسي من الخوف على مستقبلنا في عالم يقرر مصيره العلم الذي لا نبدي به اهتماما كبيرا . والنجاح في العلم يولد مزيدا من النجاح . أما في البلاد المتخلفة علميا فان الفشل يؤدي الى مزيد من الفشل: لان العلماء الذين يشعرون بخيبة الامل والاحباط، والذين يفتقرون الى وسائل البحث الجاد وامكاناته ، ويعيشون في جو لا يشجع عليه سيتركون من ورائهم جيلا اكثر احباطا واقل مقدرة ، وسيصبح هذا الجيل الاضعف هو المسؤول يوما ما ، وهلم جرا (٥) .

والواقع أن قول المؤلف « موضوع التفكير العلمي هو موضوع الساعة في العالم العربي ، وتوجد مقاومة للتفكير العلمي في حاضرنا العربي » وهم وخطأ فظيع . وان أردت الدقة فقل فيه خطآن اثنان . الاول : موضوع التفكير العلمي ليس هو موضوع الساعة في العالم العربي . فهناك اكثر من خمسين جامعة تنتشر في أرجاء العالم

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٢١ .
(٢) انظر المصدر السابق : ص ٧٦ ، ٧٧ .
(٣) انظر المصدر السابق : ص ٨٠ .
(٤) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٥) انظر المصدر السابق : ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

العربي ويؤمها الاف الطلبة . وفي كل جامعة من هذه الجامعات الخمسين توجد كليات للطب والهندسة والعلوم والبيطرة والصيدلة والزراعة وغيرها . فالتفكير العلمي متوافر في العالم العربي بدليل وجود هذه الكليات العلمية المنتشرة في العالم العربي التي يؤمها الاف الطلبة ويدرس فيها مئات من الاساتذة المتخصصين في أنواع العلوم الحاصلين على أرقى الشهادات والدرجات العلمية من الجامعات الاوروبية والامريكية.

اذن عندنا تفكير علمي تدرسه هذه الكليات الكثيرة . وليس عندنا ابداع في التفكير العلمي . فما العلة اذن ؟.

انني اقول : « موضوع التفكير العقلي هو موضوع الساعة حقا في العالم العربي » . ففي القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين سيطر الاستعمار الاوروبي الكافر على العالم العربي وسائر البلاد الاسلامية تدريجيا . وفرض الغرب سيطرته الفكرية والسياسية والعسكرية والاقتصادية على العالم الاسلامي ومنه العالم العربي . وكان ذلك بفعل هبوط المسلمين فكريا لجهلهم بالاسلام بالقياس الى العصور الماضية . ثم ضرب دولة الخلافة في استانبول في الربع الاول من هذا القرن التي كانت تجمع كثيرا من المسلمين تحت لوائها . وبعد ذلك أصبح العالم العربي مفكك الاوصال ، مقسما الى دويلات لها اعلام وحدود وضعها الكافر المستعمر . ونحن نعلم شعار بريطانيا في مستعمراتها « فرق تسد » . ورسمت بريطانيا وفرنسا وايطاليا وهولندا مناهج التعليم في العالم الاسلامي ومنه العربي .

ومعلوم أن مناهج التعليم في المدارس والجامعات في العالم الاسلامي ومنه العربي التي خططت لها دول الاستعمار الاوروبي تقوم على فصل الدين عن الحياة أولا وعلى سياسة التجهيل باسم العلم ثانيا . ولا تزال هذه المناهج التعليمية تفرض نفسها على المدارس والجامعات في العالم الاسلامي ومنه العربي حتى هذه اللحظة والى الوقت الذي تتحرك فيه هذه الامة الى النهوض الصحيح فتزيح عن كاهلها كل الوان الاستعمار وانواعه بحزم وقوة واعية مستنيرة .

والمناهج التعليمية في المدارس والجامعات في مصر وضع خطوطها العريضة دنلوب في أوائل القرن العشرين . وصارت هذه المناهج نموذجا متبعا في سائر البلاد العربية . وهذه المناهج لا تزال كما هي لم تتغير الا شيئا طفيفا . ومن سمات هذه المناهج التعليمية في المدارس والجامعات في البلاد العربية قيامها على الدراسة الافقية العريضة الواسعة والدراسة العمودية الهزيلة .

ولذلك يخرج الطالب العربي من الجامعة هزيلا في تخصصه ، فاقدا للعقلية في اختصاصه ، حاملا للشهادة وحسب . ولذلك لا نرى ابداعا في المعرفة العلمية أو العقلية على حد سواء . ولا تنس الفراغ الفكري الذي يعيش فيه الاف الخريجين في البلاد العربية الا قلة ضئيلة .

وأمر هام يجب وضعه في مقدمة الاسباب التي تعيق البحث العلمي في البلاد العربية

هو حالة التفكك والتشرذم والتجزئة التي فرضها الكافر المستعمر على العالم العربي الى أيامنا التي نعيشها .

ومعلوم أن البحث العلمي يحتاج الى ميزانية مالية ضخمة تعجز عنها كل دولة عربية على حدة . واذا استطاعت بعض دول البترول في العالم العربي أن تحقق هذه الميزانية فانها تحتاج الى الخبراء والمتخصصين في العلوم الطبيعية . وان شئت فقل ان كثيرا من البلاد العربية المنتجة للبترول تنفق على الرياضة مثلا أضعاف ما تنفقه على البحث العلمي .

وقد ذكر المؤلف ان كثيرا من العلماء العرب شعروا بخيبة الامل والاحباط والافتقار الى وسائل البحث العلمي الجاد وامكاناته ، وفقدان الكرامة ، مما دفعهم الى الهجرة الى أوروبا والولايات المتحدة الامريكية . وعدد هؤلاء العلماء يزيد عن خمسة وعشرين الف عالم . ولا جدال في ان القيادات السياسية في العالم العربي هي المسؤولة عن هذا الوضع الشائن .

وبعد هذه الصورة الواضحة الواقعية يأتي المؤلف ليقول ان التفكير العلمي هو موضوع الساعة في العالم العربي ، وتوجد مقاومة للتفكير العلمي في حاضرنا العربي!!

ومن الذي يقاوم التفكير العلمي في العالم العربي ؟! انني لم أسمع أن مظاهرة قامت في بلد عربي بسبب انشاء جامعة فيه . بل اننا نرى كثيرا من الاباء والفقراء يرسلون أبناؤهم الى الجامعة برحابة صدر مع فقرهم وبؤسهم . وان روسيا عندما نهضت فكريا بالقياس الى السابق سنة ١٩١٧ م بدأت تسير نحو التقدم العلمي بخطوات واسعة مع فساد مبدئها .

فالتقدم العلمي يأتي بعد الرقي الفكري . ولكن المؤلف يجب أن يضع العربة أمام الحصان بسبب سطحيته وخربشته الفكرية .

وعندما ينهض العالم العربي فكريا سيدرك المؤلف أن التقدم العلمي عندئذ تحصيل حاصل . فموضوع الساعة في العالم العربي والقضية المصيرية هي الارتقاء الفكري المستنير ولا شيء سوى ما ذكرناه .

وليس هناك من يشن معركة على كل من يدعو الى التفكير العلمي والبحث العلمي. ولكننا نشن معركة على كل من يدعو الى أن تكون الطريقة العلمية هي الاساس في التفكير . لان الطريقة العلمية لا تبحث الا المادة المحسوسة في المختبر ، وتكون باتباع الملاحظة والتجربة والاستنتاج .

أما الانسان والمجتمع والفقه والتاريخ والجن والملائكة وحقيقة وجود الله والمنطق فلا تبحث الا بالطريقة العقلية الاساسية في كل عملية تفكير . فالمؤلف يقدس الاسلوب العلمي في التفكير تقليدا للراسماليين والاشتراكيين والماركسيين الذين اتخذه أساسا في التفكير منذ التقدم العلمي والتكنولوجي في القرن التاسع عشر . فوقعوا في أخطاء كثيرة وتناقضات وترقيعات للافكار التي يحملونها . والشيء الرائع في أوروبا وأميركاوروسيا السوفياتية هو العلم والتكنولوجيا . وغير ذلك سخف وخطأ وتناقض وفساد في الفكر والراي والانظمة .
واننا يجب أن نلحق بركب العصر ثم نتعداه في العلم والتكنولوجيا فقط .

أما حضارتنا وأفكارنا وثقافتنا فيجب أن تبقى خاصة بنا ، ثم نقوم بنشرها على العالم كما فعل أجدادنا ليعم الخير والسعادة جميع البشر .

والحقيقة التي تعبر عن المستوى الحالي للعلم تظل صحيحة ولكن فيها قابلية الخطأ. وهذا لا يعيب التفكير العلمي لان ذلك من طبيعته .

والمعرفة العلمية لا تصل الى الكمال ، وهي محدودة ناقصة وغير ثابتة .

وهذا يعود الى أن عقل الانسان محدود ، وحياته محدودة كذلك . وما ينتهي اليه العالم الفيزيائي فلان يبدأ منه العالم الفيزيائي فلان ويضيف اليه أو يصحح جزئيات منه وهكذا ... وهذا لا يطعن في البحث العلمي أو التفكير العلمي . والعلم لا يزال عاجزا عن تفسير ظواهر كثيرة . وهذا من طبيعة البحث العلمي . ولكن المصيبة الكبرى تكمن في تحميل العلم ما لا يطيقه أو يعجز عنه أصلا ، وذلك بجعل الاسلوب العلمي في التفكير أساسا مع انه فرع من فرعي الطريقة العلمية في التفكير ، وقياس الانسان الذي يعقل وتصدر عنه المشاعر ويخطط للمستقبل بقطعة من الرصاص أو الحديد أو الذهب وما شاكل ذلك .

فالعلم عاجز عن اثبات حقيقة وجود الله مثلا . والبحث العلمي لا يثبته ولا ينفيه . لان العلم لا يبحث الا المادة المحسوسة . والله سبحانه وتعالى ليس مادة وليس محسوسا ، بل المحسوس هو أثره أي مخلوقاته التي خلقها .

ولا يمكن أن تثبت حقيقة وجود الله الا بالطريقة العقلية . ومعنى ذلك ان العلم عاجز عن اثبات حقيقة من خلق الوجود كله ، ومنه المادة ودماغ الانسان وحواسه والمعلومات التي أعطيت لاول مخلوق بشري على وجه الارض وهو آدم عليه السلام . ومع ذلك ذهب علماء الشيوعية الذين يقدسون الاسلوب العلمي في التفكير ويجعلونه أساسا في التفكير الى القول بأن الحياة والكون مادة وحسب ، أي ليس للوجود خالق. وأقاموا مجتمعا على أساس هذه الفكرة الرئيسية ، ويجرون عليه التجارب كما تجري على الارانب أو الخراف في الحقول . ان صاحب العقل الرجعي هو ذلك الانسان الذي يحمل أفكارا أو يروج لافكار تهبط بانسانية الانسان الى الحضيض ولو كان يتسلح بكل وسائل العلم والتكنولوجيا وأدواتهما . وان صاحب العقل الراقي هو ذلك الانسان الذي يحمل أفكارا أو يروج لافكار ترتفع بانسانية الانسان الى ذروة الذرى ولو كان فاقدا لكل وسائل العلم والتكنولوجيا وأدواتهما .

والذين يحاولون أن يعيدوا التجربة المريرة للكنيسة الغربية ضد العلم لا يعيقون البحث العلمي في البلاد الاسلامية ومنها العربية . لان الاسلام كما ذكر المؤلف لا يعادي العلم ، بل يحض عليه بالحاح . وعلماء المسلمين لا يختلف موقفهم عن موقف الاسلام ، وكذلك موقف الخلفاء والامراء . والذي يخرج عن خط الاسلام في موقفه من العلم الطبيعي فهو ليس من الاسلام في هذا الموقف ولا يصح أن ننسبه اليه . وهؤلاء قلة قليلة لا يعتد بموقفهم . والعقل في ذاته قاصر ومحدود ليس في ذلك ريب . ولكن ذلك لا ينقص من قيمة العقل . والعقل هو الذي جعل الانسان أفضل المخلوقات جميعا . وللتفكير طريقتان : طريقة التفكير العلمي أو الطريقة العلمية في التفكير ، وهي لا تصلح الا في بحث المادة المحسوسة في المختبر بالملاحظة والتجربة والاستنباط ، والطريقة العقليةفي التفكير ، وهي الاساس في التفكير ، ولولاها لما استطاع الباحث أن يبحث في المادة

على الطريقة العلمية . اما ان نسير وراء رغبة المؤلف في جعل الاسلوب العلمي في التفكير هو الاساس في كل بحث سواء أكان بحثا في المادة أم بحثا في الانسان والمجتمع والحياة على سبيل التعميم الذي نشأ عن تقديس الغرب وامريكا وروسيا للطريقة العلمية في التفكير ، فتلك مجازفة شنيعة وهبوط الانسان الذي كرمه الله سبحانه وتعالى الى منزلة المادة الجامدة التي لا تعقل ولا تصدر عنها المشاعر ولا تخطط للمستقبل . وهذا ليس اقلالا من اهمية العقل ، بل هو تكريم له ووصف لواقعه . وليس تضييقا للمجال الذي ينطبق عليه ، بل تحديد للمجال الذي يستطيع أن يخوض فيه . والعقبة الحقيقية ليست في اولئك الذين يحددون طبيعة العقل ويصفون واقعه في بحث الاشياء المادية والافكار والثقافة والحياة والانسان والذات الالهية . ولكنها تكمن في حالة التجزئة والتشرذم في العالم العربي وتفاهة المناهج التعليمية في المدارس والجامعات في العالم العربي ، والاوضاع السياسية العفنة والعقلية الخانقة التي تنفر العلماء العرب وتدفعهم الى الهجرة الى اوروبا وامريكا .

٥ ـ في أثناء حديث المؤلف عن العقبات التي تعترض طريق التفكير العلمي ، ومشكلة الوراثة والتحكم في صفات الانسان ، ومشكلة التسلح ، يقرر هذه الافكار والاراء ، اذ يقول :

التعصب هو اعتقاد باطل بأن المرء يحتكر لنفسه الحقيقة أو الفضيلة ، وبأن غيره يفتقرون اليها ، ومن ثم فهم دائما مخطئون او خاطئون .

ومن هنا فان التعصب ، الذي يتخذ شكل حماسة زائدة للرأي الذي يقول به الشخص نفسه أو للعقيدة التي يعتنقها ، يتضمن في واقع الامر بعدا آخر : فهو يمثل في الوقت نفسه موقفا معينا من الاخرين .... فانني في حالة التعصب لا أهتدي الى ذاتي ، ولا اكتشف مزاياي الا من خلال انكار مزايا الاخرين . وهذا هو الفرق بين التعصب وبين الاعتداد بالنفس ، الذي هو شعور مشروع ، اذ ان المعتد بنفسه لا يبني تجميده لنفسه، حتما ، على انقاص الاخرين، بل قد يعترف لهم بالفضل مع تأكيده الفضيلة هو أيضا(١).

فالتعصب العنصري ، والعصب القومي المتطرف ، والتعصب الديني ، كل هؤلاء يشاركون في سمات واحدة : الانحياز الى موقف الجماعة التي ننتمي اليها دون اختيار، ودون تفكير ، والاستعلاء على الاخرين والاعتقاد انهم أحط ، واغلاق أبواب عقلك ونوافذه اغلاقا محكما حتى لا تنفذ اليه نسمة من الحرية .....

واعظم الاخطار التي يجهلها التعصب على العلم هو أنه يجعل الحقيقة ذاتية ، ومتعددة ، ومتناقضة ، وهو ما يتعارض كلية وطبيعة الحقيقة العلمية (٢) .

التعصب عقبة متعددة الاطراف ، تقضي قضاءا تاما على كل امكان للتفكير العلمي

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ١٠٢ .
(٢) انظر المصدر السابق : ص ١٠٥ .

اذا ترك لها المجال لكي تنتشر وتسيطر . والعقل البشري لا يستطيع أن يجد حلا وسطا بين الاثنين ، فاما العلم واما التعصب ، ولا بد من القضاء على احدهما لكي يبقى الاخر (١) .

حضارة العرب ظلت بمنأى عن داء التعصب . وهناك لون من الوان التعصب ، هو الاعتقاد الباطل بأن الموضوع الواحد لا يمكن أن يكون فيه الا رأي واحد ، وبأن كل ما عداه باطل . واذا كان هذا الاعتقاد مفهوما في ميدان الحقائق العلمية فانه غير مفهوم في ميدان الحياة السياسية والاجتماعية ، حيث يعد الاختلاف في الراي رحمة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .... هذا هو نوع التعصب الذي تستفحل شروره في عالمنا العربي المعاصر ، والذي يعد عقبة كبرى في طريق التفكير العلمي في ميدان من أهم ميادين الحياة ، الا وهو تنظيم المجتمع (٢) .

ان العلوم الطبية ، التي ترتبط ارتباطا اساسيا بعلم الحياة ، قد أحرزت ، كما هو معروف ، تقدما هائلا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وادى هذا التقدم الى زيادة كبيرة في متوسط عمر الانسان ، على مستوى العالم كله ، ، وفي الدول المتقدمة بوجه خاص ، كما ادى الى انخفاض هائل في نسبة الوفيات بين المواليد . وهكذا ازدادت فرص الحياة امام الانسان على طرفي العمر ، أي في أوله وفي آخره (٣) .

وبقدر ما نجح العلم في اطالة عمر الانسان ، عن طريق كشوفه الطبية والبيولوجية، وفي تحقيق الرخاء والرفاه لحياته ، عن طريق المخترعات التكنولوجية ، نجح أيضا ، ان كان اسم النجاح يصلح للانطباق على هذه الحالة ، في اختراع أفتك وأشرس أدوات القتل الجماعي ونشر البؤس والتعاسة بين البشر (٤) .

والواقع أن التعصب للراي في البحث العلمي ضار بالعلم وعائق عن تقدمه . لان الباحث يتخلى عن الاراء السابقة عند البحث العلمي ولا يتخلى عن المعلومات السابقة. وذلك من طبيعة البحث العلمي وسماته .

وقد سبق أن ذكرنا أن النتيجة في البحث العلمي صحيحة فيها قابلية الخطأ . وهو ما يسمى القانون العلمي أو الحقيقة العلمية . أي أنها غير جازمة وغير يقينية . أما بحث الافكار والنصوص الادبية والتاريخ وما شابه ذلك بالطريقة العقلية ، فان كانت هذه النتيجة هي الحكم على وجود الشيء فهي قطعية لا يمكن أن يتسرب الخطأ اليها مطلقا. أما ان كانت النتيجة هي الحكم على حقيقة الشيء أو صفته فانها تكون نتيجة ظنية ، فيها قابلية الخطأ . لان هذا الحكم جاء عن طريق المعلومات ، أو تحليلات الواقع

(١) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٢) انظر المصدر السابق : ص ١١٩ .
(٣) انظر المصدر السابق : ص ٢٥٢ .
(٤) انظر التفكير العلمي ، فؤاد زكريا : ص ٢٦٠ .

المحسوس مع المعلومات ، وهذه يمكن أن يتسرب اليها الخطأ ، ولكن تبقى فكرا صائبا حتى يتبين خطؤها ، وحينئذ فقط ، يحكم عليها بالخطا ، وقبل ذلك تبقى نتيجة صائبة وفكرا صحيحـا .

والمؤلف لم يفصل القول في التعصب ، بل حمل على كل تعصب ، سواء أكان في العلم أم في بحث وجود الشيء أم حقيقته وصفته بطريقة التفكير العقلية . وهو في هذا الموقف ساوى بين ما نتيجته قطعية جازمة وبين ما نتيجته ظنية ، فيها قابلية الخطا بالقياس الى فكرة التعصب . والمؤلف متأثر في موقفه من التعصب عن الفكر الراسمالي الذي يفرز الحل الوسط في الحكم على القضايا والاحداث والمواقف ، والميوعة والانسياب والبعد عن التحديد الصارم الدقيق . ولذلك نرى المؤلف يمقت التعصب ، أي تعصب ، سواء أكان تعصبا للحق أم تعصبا للباطل . وقول المؤلف : « فان التعصب ، الذي يتخذ شكل حماسة زائدة للراي الذي يقول به الشخص نفسه أو للعقيدة التي يعتنقها .... » دليل على انه متأثر جدا بالفكر الراسمالي . فما حدود هذه الحماسة الزائدة ؟!

والمسلم عندما يتعصب للاسلام ، لانه حق ، عن قناعة جازمة ، ويستطيع أن يثبت ذلك بالادلة العقلية المكنة ، ويهاجم الراسمالية والاشتراكية الماركسيـة ، ويبين فسادهما وتفاهتهما ، بادلة من واقع النصوص والتطبيق على ارض الواقع ، فهل يجوز أن نتهمه بأنه ذو اعتقاد باطل ، ينحاز الى موقف الجماعة دون اختيار ، ودون تفكير ، ويستعلي على الاخرين ؟!

وهل يستوي عند المؤلف الذي يتعصب للحق ويتعصب على الباطل ، والذي يتعصب للباطل ويتعصب على الحق ؟!

التعصب للحق موقف الشرفاء من البشر ، والتعصب للباطل والشر موقف الجهلة أعداء الانسان . التعصب الاول فضيلة وواجب ، والتعصب الثاني رذيلة ومنكـر . التعصب العنصري والتعصب القومي يقفان ضد انسانية الانسان . أما التعصب الديني (ان الدين عند الله الاسلام) فهو لسعادة البشر ، وهو واجب على كل انسان نبيل ، لان الحق ان لم يجد من ينصره ويعززه فسيجد الباطل المدعم بالقوة الفرصة أمامه لكي يسيطر ويضرب بجذوره في أعماق الارض .

وقد ذكرنا آنفا ان التفكير العلمي عند المؤلف هو كل تفكير منظم ذي منهج واضـح نستخدمه في شؤون الحياة اليومية . وقد بينا خطأ هذا المفهوم . لان التفكير العلمي انما ينحصر في بحث المادة المحسوسة وحسب ، بالملاحظة والتجربة والاستنباط . وعلى هذا الاساس يكون التعصب في التفكير العلمي غير وارد في أغلب الاحوال . والتعصب ليس من صفاه العلماء الطبيعيين .

ويكون مدار التعصب غالبا في التفكير العقلى ، اى في العقائد والايديولوجيات والملل والمذاهب والتاريخ والادب والسياسة والثقافة الاجتماعية والنفسيـة والتربوية . والعالم الطبيعي الذي لا يتخلى عن الاراء السابقة عند البحث لا يمكن أن يسمى عالمـا

بالمعنى الدقيق ، ولا يمكن ان يتقدم في بحثه خطوة واحدة . فلا علاقة بين العلم وبين التعصب . فاوروبا وأميركا وروسيا السوفياتية وصلوا الى مرحلة بعيدة على طريق العلم والتكنولوجيا ومع ذلك يتعصبون على المسلمين ويحقدون عليهم حقدا ظاهرا . اي ان التعصب جاء من طريق الاعتقاد والافكار العقلية .

وهناك بعض الموضوعات يمكن أن يكون فيها أكثر من راي : فالنتائج التي يتوصل اليها الباحث بالطريقة العلمية صحيحة فيها قابلية الخطأ . والنتائج التي يتوصل اليها الباحث بالطريقة العقلية عندما يبحث حقائق الاشياء وصفاتها صحيحة فيها قابلية الخطأ . أما النتائج التي يتوصل اليها الباحث بالطريقة العقلية عندما يبحث وجود الشيء فهي قطعية لا يمكن أن يتسرب الخطأ اليها . وهناك بعض الموضوعات لا تحتمل الا رأيـا واحدا محددا ، مثل قولنا : النهضة هي ارتقاء فكري ، والله هو الواجب الوجود الازلي الذي خلق الوجود المدرك وغير المدرك ، واصلاح المجتمع يصلح الفرد ، والمجتمع عبارة عن أفراد تنظمهم علاقات ، والانسان أكرم المخلوقات بعقله ، ودماغ الانسـان فيه خاصية الربط ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء والمرسلين عليهم السلام ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ، وحقد الكفار علـى المسلمين أمر مقرر، وغير ذلك من الموضوعات التي لا تحتمل الا حكما أو رأيا واحدا .

وكثير من احداث التاريخ يمكن أن يكون فيها أكثر من راي واحد .

أما حقائق التاريخ والكون والانسان والحياة فلا تحتمل الا حكما قاطعا ورأيا واحدا .

أما الفنون ومنها الاداب فانها تحتمل أكثر من راي واحد ، لان الحكم عليها يعتمد على الذوق والمشاعر . والافكار والمعاني التي تصوغها الفنون تختلف بين أمة وأخرى . ومعلوم ان الراي يتوقف على قوة الدليل أو الحجة أو البرهان . فان كان الدليل قطعيا يكون الحكم أو الراي صحيحا قاطعا .

وان كـان الدليـل ظنيـا يكـون الحـكم والـراي ظنيـا ، كذلـك ، اي انـه صحيـح حتـى يثبت خطـؤه . وان كـان الدليـل ضعيفا يكون الحكم أو الراي ضعيفا كذلك . والواقع أن العلوم الطبية تقدمت تقدما هائلا بالقياس الى ما كانت عليه منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولكن هذا التقدم في العلوم الطبية اقل بكثير من التقدم في علوم المادة مثل الفيزياء والكيمياء . وصحيح ان متوسط عمر الانسان يزداد زيادة ملحوظة في غير فترات الحروب الاقليمية المحدودة والعالمية في كثير من دول العالم وبخاصة الدول المتقدمة علميا وتكنولوجيا . وان انخفاضا ملحوظا في نسبة الوفيات بين المواليد قد حدث في كثير من دول العالـم وبخاصة الـدول المتقدمة .

فالزيادة الملحوظة في متوسط عمر الانسان في كثير من دول العالم والانخفاض الملحوظ في نسبة الوفيات بين المواليد في كثير من دول العالم وبخاصة الدول المتقدمة ، هـذه الاوضاع الجديدة دفعت كثيرا من الباحثين والمفكرين الى الربط بين هذه الاوضـاع الجديدة وبين تقدم العلوم الطبية منذ قرن ونصف قرن من الزمان .

وعلى هذا الاساس قالوا ان تقدم العلوم الطبية نجح في اطالة عمر الانسان . وهذا قول مناقض للواقع ومغلوط .

فمن الناحية الشرعية نعلم ان سبب الموت انتهاء الاجل ، وهو السبب الوحيد للموت . وان المميت هو الله سبحانه وتعالى لقوله : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ، ثم الى ربكم ترجعون) . وقال سبحانه وتعالى : (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . وذلك ان الشيء حتى يمكن ان يكون سببا لا بد أن ينتج المسبب حتما ، وان المسبب لا يمكن أن ينتج الا عن سببه وحده . وهذا خلاف الحالة، فانها ظرف خاص يحصل فيها الشيء ولكنه قد يتخلف ولا يحصل . فقد يحصل شيء يؤدي الى الموت جزما ، ثم لا يموت الشخص ، وقد يحصل موت فجأة ، دون أن يظهر اي سبب له . فالرصاصةالتي تطلقعلى انسان ما من بندقية أو مسدس في حالة موت يمر فيها ذلك الانسان الذي أطلقت عليه الرصاصة . ولكن ذلك الانسان قد يموت وقد لا يموت . فاذا مات ذلك الانسان يقول من لا يؤمن الا بالمحسوس ان الرصاصة هي سبب الموت . فنقول له : ان السبب لا يتخلف أبدا . فاذا أطلقنا الرصاص على الف رجل أو أكثر ولم يقع الموت في حالة واحدة فقط ادركنا أن الرصاصة ليست سببا للموت حتما ، بل هي حالة من حالات الموت . وان سبب الموت لا يقع تحت الحس . والعلمبه ناشىء عن اخبار الله سبحانه وتعالي ، وهو انتهاء الاجل .

ومع ذلك فقد حث الاسلام اتباعه على معالجة اجسامهم والرجوع الى الاطباء عندما يصيبهم مرض ما . والذي يتخلف عن ذلك وهو قادر يعد مهملا في حق جسده فيلحقه الاثم . والموت قضاء من الله سبحانه وتعالى . ولا يعرف القضاء الا بعد وقوعه . ومعالجة الجسم عند الطبيب لا تنقص من عمر الانسان ولا تزيد فيه ، وانما هي مظنة للراحة من العلل والامراض والالام ، وأن يعيش الانسان أكبر فترة من حياته التي قدرها الله سبحانه وتعالى معافى من السقم .

أما الناحية الواقعية المحسوسة فتؤكد أن المعالجة الطبية الراقية لا تزيد من عمر المريض ولا تنقص منه . وقد يوضع مريض في غرفة العناية أو الرعاية الطبية المكثفة في المستشفى ثم يموت فجأة . وقد يترك جندي في ساحة المعركة ساعات وقد نزف منه الدم ثم ينقل الى المستشفى ويعالج معالجة عادية ، فيرجع سليم الجسم معافى .

ومعلوم أن الموت ظاهرة فردية وليست جماعية . فاذا مات انسان ما فلا يعني أن موته يسبب حتما موت الاخرين . ومتوسط عمر الانسان تعتمد على جمع اعمار عدد معين من البشر ، ثم تقسيم حاصل الجمع على ذلك العدد المعين من البشر الذين جمعت أعمارهم فتكون النتيجة متوسط عمر الانسان في فترة معينة . فاذا ما عاش انسان مائة عام ، وعاش الاخر ثلاثين عاما فيكون الأول قد ساهم في زيادة متوسط عمر الانسان ، والثاني قد ساهم في انخفاض متوسط عمر الانسان . وكيف يجمع عمر الاول

مع الثاني وكل واحد منهما ليس مرتبطا من ناحية العمر بالاخر . والزيادة الكبيرة في متوسط عمر الانسان والانخفاض في نسبة الوفيات بين المواليد لا تقرران بالضرورة على أن تقدم الطب يزيد من عمر الانسان ويهبط ويهبط بنسبة الوفيات بين المواليد . لان جوهر القضية تكمن في أن الموت ظاهرة فردية وليست جماعية . ولان تقدم الطب لا يزيد من عمر الانسان فمعنى ذلك ان زيادة متوسط عمر الانسان والانخفاض فينسبة الوفيات بين المواليد لا علاقة لهما البتة بتقدم الطب أو تأخره . وزيادة متوسط عمر الانسان تشبه متوسط علامات الطلاب في صف واحد ومتوسط الفرد في بلد ما . والذي دخله مائة دينار في العام يجمع مع الذي دخله مائة الف دينار في العام . وفي هذه النظرة تخليط وتخبيط وتلفيق . فالعلم لا يطيل عمر الانسان . والجهل لا يقصر عمر الانسان ، وعمر الانسان محدود ، وهو قضاء من الله سبحانه . ولا يعرف القضاء الا بعد وقوعه . وسبب الموت الوحيد هو انتهاء الاجل .

المصادر والمراجع :

١ ــ التفكير العلمي ، للدكتور فؤاد زكريا ، علم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافيةشهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ــ الكويت .
ربيع الاول ــ ربيع الاخر ١٣٩٨ هـ ، اذار ١٩٧٨ م .

٢ ــ التفكير، للاستاذ تقي الدين النبهاني ، صفر سنة ١٣٩٣ هـ ، اذار سنة ١٩٧٣م

٣ ــ الاسلام وثقافة الانسان ، سميح عاطف الزين ، دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثالثــة ، ١٣٨٩ هـ ، ١٩٧٠ م .

نقض كتاب

"أزمة الوحدة العربية"

للدكتور

عبد العزيز الاهواني

أزمة الوحدة العربية
أبحاث حول الاشتراكية والعروبة

للدكتور عبد العزيز الأهواني

صدر هذا الكتاب في بيروت عام ١٩٧٢ . وهو عبارة عن مقالات او ابحاث تدور حول الاشتراكية والعروبة . ويرى مؤلف الكتاب ان عوامل الوحدة وأسبابها بين أبناء الوطن العربي الكبير أقوى من عوامل التفرقة وأسبابها . وهو يؤمن بأن في تحقيق هذه الوحدة الخير الشامل لكل جزء من أجزاء الوطن الكبير ، بحيث يصبح العمل في سبيلها واجبا قوميا لا يجوز التخلي عنه ، مهما تكن الظروف والاحوال .

وبعد قراءة هذا الكتاب وقفت امامي أفكار هامة لا بد أن أناقشها مناقشة دقيقة متأنية حتى تكون واضحة في اذهان القراء ، وهذه هي :

الفكرة الاولى : الوحدة العربية لا تتم الا بمضمون تقدمي من الناحية الفكرية ، ومضمون اشتراكي من الناحية الاقتصادية ، وان الاشتراكية هي النظام الملائم لمطلب الوحدة العربية من الناحية العملية ، وان الاشتراكيين الصادقين من العرب هم صناع الوحدة العربية المنشودة ، وأن واقع الوطن العربي والمرحلة التاريخية التي يجتازها تجعل الوحدة والاشتراكية وجهين لشيء واحد ، وان الدعوة الى الوحدة العربية على غير الاساس الاشتراكي دعوة فاقدة للفعالية ومتخلفة عن العصر وعاجزة عن تعبئة الجماهير في سبيل غاية مزدوجة هي الوحدة والاشتراكية معا (١) .

والاشتراكية التي يقصدها المؤلف هي الاشتراكية العلمية أو الاشتراكية الماركسية والمؤلف يرى أن الربط الوثيق بين الاشتراكية والقومية في هذه الظروف مما يقوي النضال في سبيل الانتصار النهائي للاشتراكية الماركسية في العالم كله (٢) .

والاشتراكية العلمية وصف يطلقه الاشتراكيون البلاشفة على الاشتراكية الماركسية اللينينية تمييزا لها عن الاشتراكية الخيالية أو الطوباوية أو الاسمية غير الحقيقية . ومعنى ذلك ان عبد العزيز الاهواني يروج للاصطلاح الذي يحبه ويؤثره الماركسيون

---

(١) **انظر كتاب : ازمة الوحدة العربية ، عبد العزيز الاهواني : ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١١ ، ١١٢ .**

(٢) **انظر المصدر السابق : ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣**

والللينينيون . والواقع ان الاشتراكية الماركسية هي اشتراكية حقيقية . لانه قامت على اساسها دولة كبرى هي روسيا ، والى جانبها عده دول تحاول السير في تطبيق هـــذه الاشتراكية الماركسية ، وان هذه الاشتراكية وان تلبست بالعلم لا تعدو ان تكون نظرية في العلم . والنظرية في العلم هي في الاصل فرض يراد بافتراضه الوصول الى تفسير نوع من الحقائق ، وكل نوع من الحقائق ليس له الا تفسير صحيح واحد ، في حين ان الفروض الممكن افتراضها متعددة كثيرة قد يقع بعضها قريبا من الحق وقد تقع كلها بعيدا عنه والعلم لا يأبه بالفروض الا أن يدني من التفسير الصحيح ، وهو لن يدني من التفسير الصحيح الا اذا اتبع صاحبه فيه الطريق العلمي . والطريق المفتوح امام العلم في هذا الصدد هو طريق التلمس . واذا كشف البحث عن خلاف بين بعض النتائج وبين الواقع فان النظرية عندئذ تعدل كما عدل الفرض من قبل . فان لم يكن تعديلها رفضت كما رفضت نظرية نيوتن القائلة بمادية الضوء وكما رفضت نظرية الاحتراق المعروفةفي الكيمياء بنظرية الفلوجستون .

فالنظرية نتيجة من نتائج الحدس العلمي ومثل واضح من أمثلته . والقوانين العلمية ليست يقينية ، فهي صحيحة حتى يثبت خطؤها . والنظرية اذا بلغت اقصى ما يمكن أن يقدر لنظرية من توفيق وطابقت في النهاية قانونا من قوانين الفطرة زالت النظرية وحل محلها ذلك القانون ، وان شئت فقل ارتفعت النظرية بدورها من مرتبة النظريات الى مرتبة القوانين ، فلا يقال بعد ذلك نظرية كذا ولكن قانون كذا ولا نظرية فلان ولكن قانـــون فلان (١) .

وتقوم الفكرة الاشتراكية الماركسية على ما يسمى بالمادية الديالكتيكية ، والماديـــة التاريخية . اما المادية الديالكتيكية فهي النظرية العامة للاشتراكية ومنها الشيوعية ، وقد سميت بالمادية الديالكتيكية لان اسلوبها في النظر الى حوادث الطبيعة جدلي ، اي ان طريقتها في البحث والمعرفة هي اكتشاف تناقضات الفكر والمصادمة بـــين الاراء بالنقاش ، اي هي جدلية . ولان تعليلها حوادث الطبيعة وتصورها لهذه الحوادث مادي ، اي نظرتها مادية . وأما المادية التاريخية فهي تطبيق أفكار المادية الديالكتيكية على درس المجتمع ودرس تاريخ المجتمع .

والمادية الديالكتيكية تعني النظرية المادية ، وهي ان الحياة والانسان والكون مادة تتطور من نفسها تطورا ذاتيا ، فلا يوجد خالق ولا مخلوق ، وانما تطور ذاتي في المادة. وتسير هذه المادية أي مادية ماركس من الفكرة القائلة بأن العالم بطبيعته مادي ، وان حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة ، وان العلاقات المتبادلةبين الحوادث وتكييف بعضها بعضا بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية هـــي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة ، وان العالم يتطور تبعا لقوانين حركة المادة وهو ليس بحاجة لاي عقل كلي . والاسلوب الديالكتيكي في التفكير الذي طبق فيما بعد على حوادث الطبيعة اصبح الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة. ان حوادث الطبيعةبموجب

---

(١) انظر النقد التحليلي لكتاب « في الادب الجاهلي » ، محمد احمد الغمراوي : ص ١٤٠ ـ ١٤٣

هذه الطريقة هي متحركة متغيرة دائما وابدا ، وتطور الطبيعة هو نتيجة تطور تناقضات الطبيعة ، نتيجة الفعل المتبادل بين القوى المتضادة في الطبيعة . فالمادية الديالكتيكية تقول ان العالم يتطور تبعا لقوانين حركة المادة ، وانه ليس بحاجة لاي عقل كلي ، وانه واحد لم يخلقه اله . والطريقة الديالكتيكية الماركسية من حيث تأخذ ناحيتين في البحث: احداهما ناحية البحث في الفكر ، والثانية ناحية البحث في الطبيعة . ومعلوم أن الناحية الثانية وهي الطريقة الديالكتيكية للبحث في الطبيعة وحوادثها قامت على أساس الناحية الاولى وهي ناحية البحث في الفكر أو الاسلوب الديالكتيكي في التفكير . ومعلوم ان المادية التاريخية عبارة عن التوسع في تطبيق أفكار المادية الديالكتيكية بشقيها : البحث في الفكر ، والبحث في الطبيعة على درس المجتمع ودرس تاريخ المجتمع . فاذا استطعنا ان ننقض الاسلوب الديالكتيكي الماركسي في التفكير أو ناحية البحث في الفكر تكون عندئذ الطريقة الديكالتيكية الماركسية للبحث في الطبيعة وحوادثها منقوضة وخاوية ، وتكون المادية التاريخية الماركسية بدورها فاسدة ومنقوضة . وما بني على فاسد فهو فاسد. ونحن نستطيع أن ننقض الاشتراكية الماركسية بكل تفاصيلها . ولكن ذلك يحتاج الى كتاب قائم برأسه . وقد قام بهذا العمل غانم عبده في كتابه «نقض الاشتراكية الماركسية» والطريقة الديالكتيكية الماركسية وهي تبحث في الفكر تقول : « ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية منقولة الى دماغ الانسان مستقرة فيه » . « فالادراك ليس الا انعكاس الكائن » . ولذلك فان المادة حين تنعكس على الدماغ يوجد بهذا الانعكاس الفكر ، فيفكر في المادة التي انعكست عليه ، أما قبل انعكاس المادة على الدماغ فلا يوجد فكر . وعليه فكل شيء مبني على المادة ، « المادة والطبيعة والكائن والموجود الفيزيائي هي العنصر الاول ، بينما العقل والادراك والاحساسات والموجود النفسي هي العنصر الثاني وقد كان هيغل يرى ان الفكرة قبل الواقع . ولكن ماركس يرى ان الواقع قبل الفكرة ، وهذا التعريف للعقل أو للفكر أو للادراك عند الشيوعيين بأنه انعكاس المادة على الدماغ خطأ من وجهين :

الاول : الذي يحصل في عملية التفكير اي العملية العقلية هو احساس وليس انعكاسا، فلا يوجد انعكاس بين المادة والدماغ ، فلا الدماغ ينعكس على المادة ، ولا المادة تنعكس على الدماغ . لان الانعكاس يحتاج الى وجود قابلية الانعكاس في الشيء الذي يعكس الاشياء كالمرآة ، وكالضوء ، فانها تحتاج الى قابلية الانعكاس عليها ، وهذا غير موجود لا في الدماغ ، ولا في الواقع المادي . ولذلك لا يوجد انعكاس بين المادة والدماغ مطلقا، لان المادة لا تنعكس على الدماغ ، ولا تنتقل اليه . بل الذي ينتقل هو الاحساس بالمادة الى الدماغ بواسطة الحواس . أي ان الحواس هي التي تحس بالمادة ، بأية حاسة من الحواس ، فينتقل هذا الحس الى الدماغ ، فيصدر حكمه عليه هذا في الاشياء المادية . أما الامور غير المادية، فانها كذلك يحصل احساس بها حتى تتكون العملية العقليـــة بشأنها .

الثاني : ان الحس وحده لا يحصل منه فكر ، بل الذي يحصل هو الحس فقط ، أي الاحساس بالواقع . بل لا بد من وجود معلومات سابقة عند الانسان يفسر بواسطتها الواقع الذي أحس به حتى يحصل فكر . واصرار الشيوعيين الخاطىء على انكار ان لهذا الوجود خالقا دفعهم الى انكار المعلومات السابقة عند عملية التفكير . والعملية العقلية

واحدة في كل شيء وفي كل أمر وفي كل واقع . ولنأخذ الانسان الحالي ، أي انسان ، ونعطيه كتابا سريانيا ، ولا توجد لديه اية معلومات تتصل بالسريانية ، ونجعل حسه يقع على الكتابة ، بالرؤية ، واللمس ، ونكرر هذا الحس مليون مرة ، فانه لا يمكن ان يعرف كلمة واحدة ، حتى تعطى له معلومات عن السريانية ، وعما يتصل بالسريانية ، فحينئذ يبدأ يفكر بها ويدركها . ولا يقال هذا خاص باللغات ، وانما وضعية من وضع الإنسان، فتحتاج الى معلومات عنها ، لا يقال ذلك ، لان الموضوع هو عملية عقلية ، والعملية عملية عقل ، سواء في وضع الحكم ، أم في فهم الدلالة ، أم في فهم الحقيقة . فالمعلومات السابقة عن الواقع، أو المتعلقة بذلك الواقع، شرط اساسي ورئيسي لان تحصل العملية العقلية . وعليه فالعقل او الفكر أو الادراك هو نقل الواقع الى الدماغ بواسطة الحواس ووجود معلومات سابقة يفسر بواسطتها الواقع . هذا من ناحية الادراك العقلي ، اما من ناحية الادراك الشعوري ، فناتج عن الغرائز والحاجات العضوية ، والذي يحصل عند الحيوان فانه يحصل عند الانسان ، فيعرف من تكرار اعطائه التفاحة والحجر ، أن التفاحة تؤكل والحجر لا يؤكل ، كما يعرف الحمار أن الشعير يؤكل وان التراب لا يؤكل، وانما هو راجع للغرائز والحاجات العضوية ، وهو موجود عند الحيوانات كما هو عند الانسان ، ولذلك لا يمكن أن يحصل فكر الا اذا وجدت المعلومات السابقة مع نقل الاحساس بالواقع بواسطة الحواس الى الدماغ . ويشتبه على كثير من الناس ان المعلومات السابقة قد تحصل من تجارب الشخص نفسه ، وقد تحصل من التلقي فعندهم ان التجارب نفسها قد أوجدت معلومات ، فتكون التجارب الاولى هي التي أوجدت العملية العقلية . وهذا الاشتباه يزال بمجرد لفت النظر الى ما بين دماغ الانسان ودماغ الحيوان من فرق من حيث الربط ، وبمجرد لفت النظر الى ما بين ما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية وما يتعلق بالحكم على الاشياء ما هي . أما الفرق بين دماغ الانسان فان دماغ الحيوان لا يوجد فيه ربط للمعلومات ، وانما يوجد فيه استرجاع الاحساس ولا سيما اذا تكرر ، وهذا الاسترجاع ، من حيث قيام الحيوان بالفعل طبيعيا ، خاص بما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية ، ولا يتعداها لغيرها . فأنت اذا ضربت الجرس واطعمت الكلب عند ضرب الجرس ، فانه اذا تكرر ذلك يعرف الكلب اذا قرع الجرس أن الاكل آت ، ولذلك يسيل لعابه . أما ما يشاهد من تعلم بعض الحيوانات حركات أو اعمالا تقوم بها وهي لا تتعلق بالغريزة ، فهي انما تقوم بذلك تقليدا ومحاكاة وليس عن عقل وادراك . فدماغ الحيوان لا توجد فيه خاصية ربط المعلومات ، وانما عنده تذكر الاحساس والتمييز الغريزي . وهذا بخلاف الانسان فان دماغه توجد فيه خاصية ربط المعلومات وليس مجرد استرجاع الاحساس فقط . فدماغ الانسان فيه خاصية الربط واسترجاع الاحساس ، ولكن الحيوان لا توجد لديه خاصية الربط وانما يوجد لديه فقط استرجاع الاحساس .

وعملية الاسترجاع لا تكون الا فيما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية ، ولكن عملية الربط تكون في كل شيء ، سواء ما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية أم ما يتعلق

بالحكم على الاشياء ما هي ؟ فالمعلومات السابقة لا بد منها في الربط ، وميزة الانسان على الحيوان انما هي في خاصية الربط . ولذلك فان كون الانسان يعرف من عوم الخشبة انه يمكن أن يجعل من الخشب سفينة ، هي مثل كون القرد يعرف ان اسقاط الموزة من قطف موز معلق يمكن أن يحصل من ضرب قطف الموز المعلق بعصا أو اي شيء فكله متعلق بالغرائز والحاجات العضوية ، وحصوله حتى لو ربط وجعل معلومات هو عملية استرجاع وليس عملية ربط ، ولذلك لا يكون عملية عقلية . والذي يدل على ان هناك عقلا أو فكرا ، ويكون عملية عقلية حقا ، انما هو الحكم على الاشياء ما هي ، والحكم على الاشياء ما هي لا يتم الا بعملية ربط ، وربط بمعلومات سابقة . ومن هنا كان لا بد من وجود معلومات سابقة لاية عملية ربط حتى يوجد العقل او الفكر ، اي حتى تكون العملية العقلية .

ويحاول كثير من الناس الاتيان بالانسان الاول كيف اهتدى من تجاربه وكون معلومات من هذه التجارب الى الفكر والى التفكير ، ليصلوا من ذلك الى أن الواقع نفسه بانعكاسه على الدماغ ، أو باحساس الانسان به قد جعل الانسان يفكر وأوجد لديه عملية عقلية ، اي أوجد عنده فكرا اي تفكيرا .

ومع أن ما قدمناه من ان هذا استرجاع وليس ربطا ، وانه خاص بالغرائز ولا يمكن أن ينطبق على الحكم على الاشياء ما هي ، كاف لنقضه والرد عليه . ولكن الموضوع ليس بحثا في الانسان الاول ، ولا هو متعلق بفروض وتخمينات وتصورات ، وانما هو متعلق بالانسان من حيث هو انسان ، فبدل ان نأخذ الانسان الاول ، ونقس عليه الانسان الحالي ، فنقيس الشاهد على الغائب ، وانما يجب أن نأخذ الانسان الحالي الذي أمامنا ، نشاهده ونحس به ، ونقيس الغائب على الشاهد . وما ينطبق على الانسان الحالي الحالي بالحس والمشاهدة ينطبق على كل انسان ، حتى الانسان الاول . ولذلك لا يصح أن نعكس البرهان ، بل يجب أن نسوته على وجهه الصحيح . فلنتم بالعملية العقلية في الانسان الحالي الذي نشاهده ونحس به ، فيما يتعلق بالغرائز وما يتعلق بالحكم على الاشياء ، ما هي ، ثم نرى الاسترجاع ، والربط ، والفرق بينهما . فنشاهد أن المعلومات السابقة لا بد منها في الربط عند الانسان فلا بد منها في العملية العقلية . بخلاف استرجاع الاحساس ، فانه موجود عند الانسان وعند الحيوان ، وهو لا يشكل عملية عقلية ، وليس هو عقلا ولا فكرا ولا تفكيرا .

وعلى ذلك فان الطريق المستقيم الذي يؤدي الى معرفة معنى العقل معرفة يقينية جازمة هو انه لا بد من وجود اربعة أشياء حتى تتم العملية العقلية أي حتى يوجد العقل أو الفكر أو الادراك . فلا بد من وجود واقع ، ولا بد من وجود دماغ صالح ، ولا بد من وجود حس ، ولا بد من وجود معلومات سابقة ، فهذه الاربعة مجتمعة لا بد من تحققها جميعها وتحقق اجتماعها ، حتى تتم العملية العقلية ، أي حتى يوجد عقل أو فكرا أو

ادراك . وعليه فالعقل او الفكر او الادراك هو : نقل الحس بالواقع بواسطة الحواس الى الدماغ ووجود معلومات سابقة يفسر بواسطتها هذا الواقع . وهذا وحده هو التعريف الصحيح ، ولا تعريف غيره مطلقا ، وهذا التعريف ملزم لجميع الناس فيجميع العصور ، لانه وحده الوصف الصادق لواقع العقل ، وهو وحده الذي ينطبق على واقع العقل (١) .

وبذلك نكون قد نقضنا الاسلوب الديالكتيكي في التفكير وبينا تفاهته وفساده . ومن ثم تصير الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة تافهة وفاسدة ، لانها قامت على أساس الاسلوب الديالكتيكي في التفكير . وبالتالي تصير المادية التاريخية تافهة وفاسدة لانها تقوم على أساس أفكار المادية الديالكتيكية في درس المجتمع ودرس تاريخ المجتمع . ومن السهل بيان الخطأ والفساد في كل فكرة من أفكار الاشتراكية الماركسية . فالتعديل والتحوير والتلفيق طرأ عليها كثيرا حتى صارت مسخا . وتقهقرت الى الراسمالية بدل أن تتحول الى الشيوعية . وصارت في واقعها ، منذ تطبيقها الى أيامنا ، فكرة قومية أكثر منه فكرة انسانية . وقد نشرت « الغارديان » البريطانية خبرا ينتقد فيه أنور الخوجة زعيم الحزب الشيوعي الالباني سياسة الاتحاد السوفياتي ، يقول « ان الاتحاد السوفياتي لم يعد بلداً ماركسيا لينينيا » . وهو يشير الى مناسبة نادرة يتحدث عنها، وهي زيارة الى احدى المزارع قرب المدينة القديمة « بوترينتي » فيقول أنور الخوجة في ذلك المكان الذي كان يزوره خروشوف قبل تسعة عشر عاما : « شاهد خروشوف أشجار البرتقال والزيتون التي ترمز الى السلام ولكن خروشوف لم يهتم بذلك ، واجابه خروشوف بأن شيئا اخر هو المهم هنا ، والتفت خروشوف الى وزير دفاعه وقال : ما رأيك في اقامة قاعدة بحرية هنا ؟ فأجابه وزير الدفاع : حسنا . وان شيئا من هذا لم يتحقق لاننا سادة وطننا ، ولا نسمح للغرباء بأن يعرفونا او يلزمونا بما يجب أن نفعل» . ويضيف أنور الخوجة بأنه اجرى محادثات مع ميكويان الذي كان سيصبح رئيسا للاتحاد السوفياتي . وان ميكويان قال له انالالبان سيموتون جوعا اذا انشقوا عن السوفيات . ولكنه اجاب ميكويان قائلا : « لن نموت من الجوع » . فرد عليه ميكويان : « ستبيعون انفسكم للامبرياليين مقابل ثلاثين شلنا فضيا » . لكن أنور الخوجة قاطعه : «لا ، ولكنكم انتم الذين ستبيعون أنفسكم » ويقول أنور الخوجة في حديثه بأن ستالين قبل وقت قصير من وفاته قال لخروشوف وأتباعه : « انكم ستبيعون الاتحاد السوفياتي للامبرياليين . وما تنبأ به ستالين قد حدث فعلا » .

وفضلا عن ذلك فان زعماء الصين الاشتراكية قد وصفوا واقع السياسة السوفياتية الراهنة بالامبريالية الاشتراكية في أكثر من مناسبة .

مما تقدم نستطيع أن نقول ان الاشتراكية ليست علمية وان كانت تتلبس بالعلم ، فهي نظرية علمية في أول أمرها . ثم تثبت مناقشتها ويثبت تطبيقها انها نظرية علمية فاشلة . وبذلك يجب نفي صفة العلمية عنها الان . وتبقى بعد ذلك كله أفكارا غير صحيحة .

(١) انظر نقض الاشتراكية الماركسية ، غانم عبده : ص ٨ ، ٩ ، ٤١ ، ٥٥ ، وكتاب التفكير ، تقي الدين النبهاني : ص ٨ _ ٢٦ .

وان الجزم الذي فرضه المؤلف عبد العزيز الاهواني على اقامة الوحدة العربية على الاساس الاشتراكي وحده يغدو نوعا من العبث الفكري او التفكير الهازل غير الجاد لان البلاد العربيه في عصرنا الراهن كانت من صنع الاسلام وحده . وهو المبدا الصحيح وحده ولا صحيح سواه . لانه من لدن خالق عليم حكيم . ولن يتوحد العرب الا على اساس الاسلام . وعند ذلك يحملون الاسلام الى العالم ويمسون اساتذة البشرية كما كانوا في الايام الخالية . والوقت يجري الان لمصلحة الاسلام والمسلمين المخلصين . فقد صار واضحا لكل من يعقل فساد الراسمالية والاشتراكية الماركسيه كلتاهما ، وانهما سبب شقاء البشر في العصر الراهن . فالحق يستطيع أن يشق طريقه ، بفضل المخلصين ، بين ركام الاضاليل ، ويستطيع أن يعلو ويظهر .

الفكرة الثانية : موقف عبد العزيز الاهواني من الثقافة العربية في مطلب الوحدة يتلخص في أن معرفة النواحي التقدمية منها ، وهي كثيرة ، تقيم حين تشيع بين المثقفين أواصر للتعاطف ، وتحيي ذكريات مشتركة في النفوس ، وتربط ما بين قلوب المواطنين العرب وبين عقولهم ، وتجعلهم يحسون بالاخوة التي عاشوا معا تحت كنفها منذ أزمان طويلة ، وتتيح لهم قدرا من الوعي بقوميتهم ، وبأنهم أدوا في تاريخ الانسانية دورا يحق لهم أن يفخروا به ، وتحفزهم على أن يظلوا في الاسرة الانسانية الكبرى مصدر نفع وتقدم . وان الثقافة العربية يجب أن تكون منفتحة على الثقافة العالمية اي لا تكون في عزلة عن هذه الثقافة العالمية (١) .

ولا يجوز أن ننسى ما ركز عليه صاحب الكتاب عند قوله ان الوحدة العربية يجب أن تقوم على الاساس الاشتراكي الماركسي وحده . فتصور أيها القارىء الكريم كيف يكون واقع الثقافة العربية التقدمية عندما تعيش في دولة الوحدة العربية على الاساس الاشتراكي الماركسي ، وتكون منفتحة على الثقافة العالمية التي منها الثقافة الغربية القائمة على الفكر الراسمالي !! والحق يقال أن ما ذهب اليه المؤلف تلفيق وتخبيط وتخليط لا يليق به . ويبدو أن مفهوم الثقافة أية ثقافة ، لم يتبلور في ذهنه عند تأليف هذا الكتاب . ثقافة عربية تقدمية ، تعيش في مجتمع عربي أشتراكي ماركسي ، وتنفتح على الثقافة الغربية الراسمالية !

هذا نسيج مرقع مشوه لا تقبله أمة عاقلة . والذي يبدو أن المعادلة السابقة قد استنبطها من واقع المجتمع الروسي الاشتراكي الراهن . ثقافة روسية تقدمية ، تعيش في مجتمع روسي أشتراكي ماركسي ، وتنفتح على الافكار الغربية الراسمالية . فالخطأ آت من فساد الفكر الاشتراكي الماركسي نظرية وتطبيقا .

والمؤلف منسجم مع فساد هذا الفكر لانه يؤمن به . والثقافة هي مجموعة من المعارف والفنون التي تقوم على فكرة كلية شاملة عن الكون والانسان والحياة . فالثقافة الاسلامية تقوم على الفكر الاسلامي ، والثقافة الغربية تقوم على الفكر الراسمالي . والثقافة الاشتراكية الروسية تقودم على الفكر الاشتراكي الماركسي .

(١) ازمة الوحدة العربية ، عبد العزيز الاهواني : ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ .

والفكر الاسلامي يختلف تماما عن الفكر الراسمالي والفكر الاشتراكي الماركسي .
وكل فكر ليس من الاسلام فهو كفر ، فالراسمالية كفر ، والاشتراكية الماركسية كفر .
والفكر الراسمالي يختلف ايضا عن الفكر الاشتراكي الماركسي . لان الفكر الراسمالي يقوم على فصل الدين عن الحياة ، والفكر الاشتراكي الماركسي يقوم على أفكار المادية الديالكتيكية التي عرضنا لها في مناقشة الفكرة الاولى عند المؤلف .

وعلى هذا الاساس فالثقافة الاسلامية التي سماها المؤلف الثقافة العربية ليس فيها ناحية رجعية أو ناحية تقدمية . فما دامت الافكار التي ترتبط بها هذه الثقافة وتقوم عليها راقية تكون هذه الثقافة راقية ايضا بكل عناصرها . والثقافة الاسلامية تختلف تماما عن الثقافة الغربية الراسمالية وعن الثقافة الاشتراكة الماركسية . واذا كانت الثقافة العربية كما يرى المؤلف تربط ما بين قلوب المواطنين العرب وبين عقولهم وتجعلهم يحسون بالاخوة التي عاشوا معا تحت كنفها منذ ازمان طويلة فكيف يريد المؤلف أن تقوم وحدة العرب على اساس الفكر الاشتراكي الماركسي وحده ، وان تنفتح الثقافة العربية على الثقافة الغربية الرأسمالية مع الاختلاف الكبير بين هذه الثقافات ، والاختلاف الكبير بين الافكار التي ترتبط بها كل ثقافة من هذه الثقافات ؟!

وان قول المؤلف بأن النواحي التقدمية من الثقافة العربية تتيح للعرب قدرا من الوعي بقوميتهم ، وبأنهم ادوا في تاريخ الانسانية دورا يحق لهم أن يفخروا به ، وتحفزهم على أن يظلوا في الاسرة الانسانية الكبرى مصدر نفع وتقدم قول فيه مغالطات كبيرة ، لان الثقافة الاسلامية تقوم على الاسلام الذي يحارب العصبيات . والقومية عصبية كبرى . قال الله تعالى : (ان أكرمكم عند الله اتقاكم) . وان الدور الذي قام به العرب في تاريخ الانسانية ويحق لهم أن يفخروا به كان بفضل قيامهم بنشر الاسلام الى الناس كافة . فلقد كانوا اساتذة البشر خلال قرون عديدة . وعندما تخلوا عن هذا الدور صار حالهم بحيث يكاد قول المتنبي يصدق عليهم :

يا أمة ضحك الزمان بها   يا أمة ضحكت من جهلها الامم

ولولا الاسلام لما كان العالم العربي الذي نراه اليوم . والمؤلف يريد بالعرب المعاصرين أن يعودوا مثل عرب الجاهلية ، اذ كانت تستعمرهم الحبشة ودولتا الفرس والروم البيزنطيين ، يريد بهم أن يظلوا اتباعا مخلصين لموسكو وواشنطن ولندن في السياسة والفكر والثقافة .

الفكرة الثالثة : في مقال تحت عنوان « الوعي القومي والمحنة الفلسطينية » يذكر عبد العزيز الاهواني أن « المحنة الفلسطينية » حسب تعبيره لها الفضل الكبير في تعميق الوعي القومي . ويذكر مهزلة الجيوش العربية في فلسطين سنة ١٩٤٧ . وان هذه المحنة الفلسطينية اكدت حقيقة هامة ارتبطت بالوعي القومي وحتمية الوحدة العربية هي أن هذه الوحدة المنشودة لا يمكن أن تكون تحالف حكومات ولا لقاء ملوك ورؤساء ، ولا تجميع جيوش ذات قيادات لا تدين للشعب بالولاء ، وانما لا بد أن تكون وحدة شعبية بكل ما تحمل هذه الكلمة من مضامين سياسية واجتماعية (١) .

---

(١) ازمة الوحدة العربية ، عبد العزيز الاهواني : ص ١٢١ ــ ١٢٧ .

وان تسمية ما اصاب اهل فلسطين من اليهود عملاء الغرب بالمحنة الفلسطينية أمر لا ينسجم مع عبارة الوعي القومي وايمان المؤلف بحتمية الوحده العربيه على اساس الاشتراكيه الماركسية . ويجب ان تسمى حسب منطق المؤلف « المحنه العربيه في فلسطين » لان اهل فلسطين جزء من الشعب العربي . ولكن دعاة القومية العربية في أيامنا يتظاهرون بالتركيز على وحدة الشعب العربي في كافة اوطانه ثم ترى العجب منهم عندما ينزلون بهذا الاطار الكبير الى التعصب للاقليم او المدينة أو البلدة . المحنة الفلسطينيه والمحنة المصرية والمحنه العراقية والمحنة السورية ... ما هذه النظرة الضيقة !

وليأذن لي المؤلف الكريم أن أهمس في اذنه واقول له : اذا قام في فلسطين المحلتة أو ما يسمى باسرائيل حكم اشتراكي ماركسي فماذا يفعل العرب الذين يقيمون وحدتهم الكبرى، كما يفرض عليهم المؤلف ، على اساس الفكر الاشتراكي الماركسي باليهود وبدولتهم صنيعة الغرب الصليبي ؟؟؟! وتناسى المؤلف الكريم أن روسيا السوفياتية كانت الدولة الثانية التي اعترفت باسرائيل المزعومة سنة ١٩٤٧ !

والواقع أن فلسطين جزء من البلاد العربية ، والبلاد العربية كلها جزء من العالم الاسلامي ، وغير خاف عن عقل كل واع من هذه الامة ان التفكير بقيام وطن قومي لليهود في فلسطين قد بدأ مع القضاء على الخلافة الاسلامية في استانبول . وقد قضى على هذه الخلافة فعلا سنة ١٩٢٤ على يد مصطفى كمال عميل الانجليز في أنقرة . وارادت بريطانيا صاحبة وعد بلفور أن يكون كيان اليهود السياسي في فلسطين حجر عثرة أمام رجوع هذه المنطقة الى الوحدة . وقد باركت كل دول الغرب عمل بريطانيا . لانهم يحقدون على الاسلام حقدا شديدا . وهناك حقيقة تاريخية مستقرة في أذهان الاوروبيين وهي اذا قامت في بلادنا دولة على أساس الاسلام فان هذه الدولة سوف تمتد غربا كما حصل في معركة بلاط الشهداء ووصول الجيش العثماني الى أسوار فينا . ويعرف ذلك مفكرو الغرب وساسته .

ولذلك فان الوحدة التي يدعو لها المؤلف على اساس الاشتراكية الماركسية والانفتاح على الثقافة الغربية الراسمالية لن تكون احسن حالا من الجامعة العربية التي انشأتها بريطانيا ثم ورثتها الولايات المتحدة الامريكية . ولذلك فان ما يسمى « المحنة الفلسطينية» خطأ ما هو الا قضية المسلمين الصغرى ومنهم العرب .

والقضية الكبرى هي اعادة وحدتهم جميعا على أساس الاسلام وحده الذي تفزع منه روسيا الاشتراكية الماركسية ودول الغرب الراسمالية .

الفكرة الرابعة : في مقال تحت عنوان « لماذا الخوف من العلمية » ، يروج المؤلف لفكرة سيطرة المنهج العلمي على الدراسات الانسانية ويندد بتأخر الجامعات العربية في هذا المضمار على شاكلة قوله : «ومع ذلك فلو اننا عدنا الى مقدمة «في الادب الجاهلي» وتصورنا ما كان في ذهن كاتبها من مقارنة بين الجامعة المصرية وبين الجامعات الاوروبية فيما يتصل بتأصيل المنهج العلمي للدراسات الانسانية في نفوس الاساتذة والطلاب ومن حرية البحث والتسليم بحق العلم في أن يقول كلمته في كل قضية ، لا سيما القضايا

الدينية وما يتصل بالتراث الروحي والسلوك الاجتماعي والاخلاقي ، أقول لو اننا أردنا أن نحتكم الى هذا التصور لترددنا كثيرا في ان نحكم بتقدم في هذا السبيل . فان جوا من التهيب العقلي لا يزال يسود جامعاتنا العربية ، ويحول بين العقول وبين الخوض في هذه القضايا ، وليس لمثل هذا الجو من وجود في الجامعات الاوروبية التي استقرت الاوضاع فيها منذ وقت طويل على الفصل التام بين المسائل الاعتقادية والمسائل العلمية . ولا يزال الصراع بين العلميين وغير العلميين قائما في جامعاتنا ، ولا يزال عدد كبير من أساتذة الجامعات العربية ، ان لم أقل الاغلبية الساحقة ، تصر على أن تزن الدراسات الانسانية بموازين أخرى غير ميزان العلم والمنهج العلمي ، ولا تزال لدينا أمثلة صارخة يتجاوز فيها الصراع نطاق الجامعة الى استعداء السلطات العامة واثارة غير الجامعيين واقحامهم في مجالات التخصص العلمي ، التي لا يتقنها الا أفراد محدودو العدد من العلماء (١) .

والقضية التي يثيرها المؤلف في هذا الصدد تفرض علينا أن نفصل القول في الطريقة العقلية في التفكير والطريقة العلمية في التفكير ، فنقول : ان الطريقة العقلية هي وحدها طريقة التفكير . لان طريقة التفكير واحدة لا تتعدد ، وهي الطريقة العقلية ليس غير . واذا استعملت الطريقة العقلية على وجهها الصحيح فانها تعطي نتائج صحيحة ، وذلك بنقل الحس بالواقع بواسطة الحواس الى الدماغ ووجود معلومات سابقة ، لا آراء سابقة ، يفسر بواسطتها أي بواسطة المعلومات مع استبعاد الاراء يفسر الواقع ، وحينئذ يصدر الدماغ حكمه على هذا الواقع . الا أن النتيجة التي يصل اليها الباحث على الطريقة العقلية ينظر فيها ، فان كانت هذه النتيجة هي الحكم وجود الشيء فهي قطعية لا يمكن أن يتسرب الخطأ اليها مطلقا . وذلك لان هذا الحكم جاء عن طريق الاحساس بالواقع ، والحس لا يمكن أن يخطىء بوجود الواقع ، اذ أن احساس الحواس بوجود الواقع قطعي ، فالحكم الذي يصدره العقل عن وجود الواقع في هذه الطريقة قطعي . أما ان كانت النتيجة هي الحكم على حقيقة الشيء أو صفته فانها تكون نتيجة ظنية ، فيها قابلية الخطأ . لان هذا الحكم جاء عن طريق المعلومات ، أو تحليلات الواقع المحسوس مع المعلومات ، وهذه يمكن أن يتسرب الخطأ اليها ، ولكن تبقى فكرا صائبا حتى يتبين خطؤها ، وحينئذ فقط ، يحكم عليها بالخطأ ، وقبل ذلك تبقى نتيجة صائبة وفكرا صحيحا .

والطريقة العقلية هي الطريقة التي يجري عليها الانسان من حيث هو انسان في تفكيره وحكمه على الاشياء وادراكه لحقيقتها وصفاتها . ولكن الغرب ، أوروبا ثم أميركا ولحقتها روسيا ، قد أوجد في أوروبا الانقلاب الصناعي ونجح في العلوم التجريبية نجاحا منقطع النظير ، وامتد سلطانه منذ القرن التاسع عشر حتى الان ، وقد شمل نفوذه جميع العالم فسمى اسلوب البحث في العلوم التجريبية طريقة علمية في التفكير ، فكان ما يسمى بالطريقة العلمية ، وصار ينادي بها أن تكون طريقة التفكير ، وجعلها أساسا للتفكير ، وقد أخذها علماء الشيوعية ، وساروا عليها في غير العلوم التجريبية ، كما ساروا عليها في العلوم التجريبية ، وكذلك ظل علماء أوروبا يسيرون عليها في العلوم

---

(١) انظر أزمة الوحدة العربية ، عبد العزيز الاهواني : ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

التجريبية ، وسار على نهجهم علماء أميركا ، وقلدهم فيها سائر أبناء العالم من جراء سيطره الغرب ونفوذه ثم نفوذ الاتحاد السوفياتي ، فطغت على الناس بشكل عام هذه الطريقة ، وبفعل ذلك وجدت في المجتمع في العالم الاسلامي كله قداسة للافكار العلمية وللطريقة العلمية . ولذلك كان لا بد من بيان هذه الطريقة العلمية .

الطريقة العلمية هي منهج معين في البحث ، يسلك للوصول الى معرفة حقيقة الشيء الذي يبحث عنه، عن طريق اجراء تجارب على الشيء ، ولا تكون الا في بحث المواد المحسوسة ، ولا يتأتى وجودها في الافكار ، فهي خاصة بالعلوم التجريبية . وهي تكون باخضاع المادة لظروف وعوامل غير ظروفها وعواملها الاصلية ، وملاحظة المادة والظروف والعوامل الاصلية والتي خضعت لها ، ثم تستنتج من هذه العملية على المادة حقيقة مادية ملموسة ، كما هي الحال في المختبرات . وتفرض هذه الطريقة التخلي عن جميع الاراء السابقة عن الشيء الذي يبحث وعدم وجودها . ويبدأ الباحث بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية . والنتيجة التي يصل اليها الباحث على الطريقة العلمية هي مع تسميتها حقيقة علمية أو قانونا علميا ، فانها ليست قطعية ، وانما هي ظنية فيها قابلية الخطأ . وقابلية الخطأ هذه في الطريقة العلمية أساس من الاسس التي يجب أن تلاحظ فيها حسب ما هو مقرر في البحث العلمي .

فالطريقة العلمية طريقة صحيحة ، ولكنها ليست أساسا في التفكير ، بل هي اسلوب دائم من أساليب التفكير ، وهي لا تطبق على كل أمر ، وانما تطبق في أمر واحد هو المادة المحسوسة لمعرفة حقيقتها عن طريق اجراء تجارب عليها ، ولا تكون الا في بحث المواد المحسوسة ، فهي خاصة بالعلوم التجريبية ولا تستعمل في غيرها .

أما كونها ليست أساسا في التفكير فظاهر من وجهين : الاول انه لا يمكن السير بها الا بوجود معلومات سابقة ولو معلومات أولية . فالعالم في المختبر لا يمكن أن يسير في الطريقة العلمية لحظة واحدة الا أن تكون لديه معلومات سابقة . والمعلومات السابقة غير الاراء التي يجب أن يتخلى الباحث عنها . والمعلومات الاولية ، لاول بحث علمي لا يمكن أن تكون معلومات تجريبية لان ذلك لم يحصل بعد ، فلا بد أن تكون عن طريق نقل الواقع بواسطة الحس الى الدماغ ، أي ان هذه المعلومات قد جاءت من طريق الطريقة العقلية، ولذلك لا تكون الطريقة العلمية أساسا، بل تكون الطريقة العقلية هي الاساس ، والطريقة العلمية مبنية على هذا الاساس ، فتكون فرعا من فروعه لا أصلا له ، ولهذا فان من الخطأ جعل الطريقة العلمية أساسا للتفكير .

الوجه الثاني : ان الطريقة العلمية تقضي بأن كل ما لا يلمس ماديا لا وجود له في نظر الطريقة العلمية . واذن لا وجود للمنطق ، ولا للتاريخ ، ولا للفقه ، ولا للسياسة ، ولا وجود لله ولا للملائكة ، ولا للشياطين ، ولا غير ذلك من الموجودات ، لان ذلك لم يثبت علميا . فوجود الله ثبت بالطريقة العقلية بشكل قاطع ، وكذلك سائر هذه الموجودات التي ذكرناها انما تثبت بالطريقة العقلية وحدها . ولذلك لا يجوز أن تتخذ الطريقة العلمية أساسا للتفكير . وعجزها وقصورها عن امكانية اثبات شيء موجود بشكل قاطع دليل على انها ليست أساسا للتفكير .

والطريقة العلمية تستنبط فكرا ، ولكنها لا تستطيع انشاء فكر . ولذلك كان من الطبيعي الا تكون هي اساسا للتفكير . ولكن سيطرة الطريقة العلمية على علماء الغرب في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين الى حد التقديس جعلها وحدها اساس التفكير ، وحكمها في جميع الاشياء ، فصاروا يرون البحث الصحيح هو الذي يجري على الطريقة العلمية ، وتجاوز ذلك الى حد أن صار بعضهم يبحث فعلا أمورا لا علاقة للطريقة العلمية بها ، كالافكار المتعلقة بالحياة والمجتمع ، على نهج الطريقة العلمية وتقليدا لها ، مما ادى الى الانحراف في التفكير ، والضلال عن الصراط المستقيم . ولان الطريقة العلمية توجد نتيجة ظنية عن وجود الشيء وعن حقيقته وعن صفته . وهناك اشياء يجب أن تكون النتيجة عن وجودها قطعية جازمة ، فلا يصح أن تكون الطريقة الظنية اساسا للوصول الى النتيجة القطعية ، وهذا وحده كاف لجعل الطريقة الظنية غير صالحة لان تكون اساسا للتفكير .

وعلى هذا فان للتفكير طريقتين اثنتين ليس غير ، هما الطريقة العقلية ، والطريقة العلمية . والطريقة العلمية لا تصلح الا في فرع من فروع المعرفة ، وهو فرع المادة التي تخضع للتجربة ، بخلاف الطريقة العقلية فانها تصلح لكل بحث من الابحاث. لذلك فانه يجب أن تكون الطريقة العقلية هي الاساس في التفكير . ففي الطريقةالعقلية ينشأ الفكر ، وبدونها لا ينشأ فكر انشاءا جديدا ، وبواسطة الطريقة العقلية يوجد ادراك الحقائق العلمية بالملاحظة والتجربة والاستنتاج ، أي بواسطتها توجد الطريقة العلمية نفسها ، وبواسطتها يوجد ادراك الحقائق المنطقية ، وبواسطتها يوجد ادراك حقائق التاريخ وتمييز الخطأ من الصواب فيها ، وبواسطتها توجد الفكرة الكلية عن الكون والانسان والحياة وعن حقائق الكون والانسان والحياة . والطريقة العقليةتعطي نتيجة قطعية عن وجود الشيء . وهي وان كانت تعطي نتيجة ظنية عن كنه الشيء وصفته ، ولكنها تعطي نتيجة قطعية عن وجوده . فهي من حيث حكمها على وجود الشيء قطعية يقينية ، فيجب أن تتخذ هي وحدها اساسا للبحث ، أي اساسا باعتبار ان نتائجها قطعية . وعلى هذا لو تعارضت نتيجة عقلية مع نتيجة علمية عن وجود الشيء تؤخذ الطريقة العقلية حتما وتترك النتيجة العلمية التي تتعارض مع النيجة العقلية ، لان القطعي هو الذي يؤخذ لا الظني . ومن هنا كان الخطأ الموجود هو اتخاذ الطريقة العلمية اساسا للتفكير ، وجعلها حكما في الحكم على الاشياء . فيجب ان يصحح هذا الخطأ . ويجب أن تصبح الطريقة العقلية هي اساس التفكير ، وهي التي يرجع اليها في الحكم على الاشياء (١) . ونستطيع الان أن نقول ان دعوة المؤلفالى التسليم بحق العلم في أن يقول كلمته في كل قضية ، لا سيما القضايا الدينية وما يتصل بالتراث الروحي والسلوكالاجتماعي والاخلاقي دعوة الى الخطأ المحض والانحراف في التفكير والضلال البعيد . واما صاحب كتاب « في الادب الجاهلي » فلم يعتمد علىالمنهج العلمي في دراسة الشعر الجاهلي ، لان المنهج العلمي لم يفرض سلطانه على بحث كل القضايا في الغرب الا في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . وانما اصطنع طه حسين في دراسة الادب الجاهلي المنهج الفلسفي الذي استحدثه الفيلسوف الفرنسي

(١) **انظر كتاب التفكير ، تقي الدين النبهاني : ص ٢٨ ـ ٤٩ .**

ديكارت للبحث في حقائق الاشياء في مطلع القرن السابع عشر الميلادي والمنهج الفلسفي الديكارتي شيء ، والمنهج العلمي التجريبي شيء اخر . وان كان المنهج الفلسفي الديكارتي يعد ارهاصا وممهدا للمنهج العلمي . أما فكرة استعداء السلطات العامة واثارة غير الجامعيين واقحامهم في مجالات التخصص العلمي فلا نقرها . وهي وان حدثت في قضية طه حسين عند ظهور كتابه « في الشعر الجاهلي » فلا يعني أن صاحب ذلك الكتاب كان محقا في كتابه ودقيقا في ارائه . ومعلوم أن اراء طه حسين في ذلك الكتاب وسائر كتبه تعتمد على التعميمات والقياس الشمولي الفاسد . والذين نقضوا كتابه بعد ذلك لم يكونوا من السلطات العامة . وقد بينوا الخطأ والضلال والفساد في آرائه ومع ذلك لم يخضع للحق ، ومضى سادرا في غيه وضلاله ، مما أفقده النزاهة والموضوعية والحيدة التي يجب أن يتحلى بها الباحث .

الفكرة الخامسة : في مقال تحت عنوان « ازمة الثقة بالجماهير العربية » يذكر المؤلف انه كانت هناك عوامل تخفف بعض الشيء من حدة هذه الازمة وتلطف أو تعطل خطر الانفجار الكامن في ضمير الجماهير . واستطاع المؤلف أن يتبين من هذه العوامل اثنين لهما اثرهما البعيد :

اولهما فكرة الرزق المقسوم التي كان يؤمن بها الناس في تلك العصور ، حين يردون الرزق ، أو الغنى والفقر بعبارة أخرى ، الى مشيئة سماوية تضعف ازاءها أو تنعدم الارادة الانسانية والسعي البشري . وقد شغلت هذه القضية اذهان الناس في الماضي الى حد يبدو غريبا عند أبناء العصر الحاضر ، وتجاوزت حدود العامة الى خاصة الخاصة من المثقفين والعلماء ، واستأثرت بعجبهم وأثارت حيرتهم ، ووجه العجب فيها انهم لم يعرفوا وجها من الحكمة أو المنطق في استحقاق من استحق الغنى ، وهو جاهل ساقط ، وفي حرمان من حرم ، وهو عالم ذكي . وبين ايدينا سؤال وجهه أبو حيان التوحيدي في كتابه « الهوامل والشوامل » الى مسكويه الفيلسوف ، يجعل من هذه المسألة أم المسائل كلها .... وان سيطرة هذه الفكرة تستل من قلوب الجماهير قدرا غير قليل من السخط ، وان تردها الى شيء من التسليم والرضا بالواقع ، ما دامت اسبابه مجهولة او منوطة بما هو فوق الطاقة البشرية (١) .

ويذكر المؤلف فكرة الرزق المقسوم مرة اخرى وما يتصل بذلك من الرخص والغلاء في الاسعار في مقال تحت عنوان « ثلاث كلمات ، الرزق بين السماء والارض » اذ يقول : « كان الناس قديما يعتقدون أن الارزاق وما يتصل بها لا تدخل تحت سيطرة الانسان ، فالظاهرة الاقتصادية كانت أمامهم من التعقيد والتشابك بحيث لا يستطيعون انيكتشفوا القانون او القوانين التي تنتظم ما يرونه من تفاصيل وتحتكم فيما يلمسونه منجزئيات، ولم يكن هذا الاعتقاد مقصورا على من يطلقون عليهم لفظ العامة في تلك العصور ، فأبو يوسف صاحب ابي حنيفة ، وهو العالم البصير ، يقول في كتابه « الخراج » متحدثا عن الاسعار « وليس للرخص والغلاء حد يعرف ولا يقام عليه ، انما هو أمر من السماء لا يدرى كيف هو ، وليس الرخص من كثرة الطعام ، ولا غلاؤه من قلته . وانما ذلك أمر

(١) **ازمة الوحدة العربية ، عبد العزيز الاهواني : ص ١٩١ ، ١٩٢ .**

الله وقضاؤه . وقد يكون الطعام كثيرا غاليا ، وقد يكون قليلا رخيصا » . وقد اكتشفت اليوم في عصر العلم هذه القوانين ، وعرفت الاسباب ، وأصبح الناس يعرفون من أمرها ما لم يعرف أبو يوسف ، وأصبحوا يطلبون من الدولة الحديثة ما لم يطلبه أسلافهم من الدول القديمة ، وصاروا لا يرضون في هذا السبيل بغير الحلول الحاسمة . وقد سموا ما يريدونه بالاشتراكية ، وعرفوا لها مدلولا عمليا يتخذ فيه العمل ، والعمل وحده ، معيارا أو ميزانا للارزاق او الدخول ، وان ما عداه استغلال لا يتفق مع العدالة والاخوة الانسانية . يستوي أن يجيء هذا الاستغلال من ابناء الوطن في الداخل او أعدائه في الخارج . ولن يلفتهم عن هذا البرهان بعدئذ تيقينته نفوسهم بلاغة القدماء ولا تفلسف المحدثين (١) .

ولو كان الامر يتعلق بالمؤلف لما فكرت لحظة في الرد عليه . لانه يؤمن بالاشتراكية الماركسية . والذي يؤمن بالاشتراكية الماركسية ليس مؤمنا وليس مسلما . والايمان بالقضاء والقدر جزء من الايمان في الاسلام . والرزق بأنه من الله وحده داخل في فكرة القضاء . والذي يكفر بالاصل فهو للفرع أكثر انكارا وجحودا .

ولكنني أرد على المؤلف لاوضح لقارىء الكتاب حقيقة الامر ، فأقول : موضوع البحث الذي يجب أن تبنى مسألة القضاء والقدر على أساسه ، هو موضوع الثواب والعقاب، أي هل الانسان ملزم بالقيام بالفعل خيرا أو شرا ، أو مخير فيه ؟

والمدقق بأفعال الناس يرى أن الانسان يعيش في دائرتين، يسيطر على الاولى ،وهي التي تقع في نطاق تصرفاته ، وفي نطاقها تحصل أفعاله التي يقوم بها بمحض اختياره . والاخرى تسيطر عليه ، وهي الدائرة التي يقع في نطاقها ، وتقع في هذه الدائرة الافعال التي لا دخل له بها، سواء وقعت منه أم عليه . والافعال التي تقع في الدائرة التي تسيطر عليه قسمان : قسم يقتضيه نظام الوجود مباشرة ، فهي تخضعه لها ، ولذلك يسير بحسبها سيرا جبريا كعجزه مثلا عن الطيران بجسمه في الهواء ، وعن السير على الماء .... وقسم لا يقتضيه نظام الوجود مباشرة ، وان كان كل شيء لا يخرج عن نظام الوجود . فالافعال التي ليست في مقدوره والتي لا قبل له بدفعها ، ولا يقتضيها نظام الوجود ، هي الافعال التي تحصل من الانسان أو عليه ولا يملك دفعها ، فهي داخلة في الدائرة التي تسيطر عليه ، وهي تسمى قضاء ، ولا يثاب الانسان على وقوعها ولا يعاقب عليها . ويقال حينئذ ان الفعل وقع قضاء ، وعلى الانسان أن يؤمن بأن القضاء من الله سبحانه وتعالى .

أما الافعال التي تقع في الدائرة التي يسيطر عليها الانسان ، فهي الدائرة التي يسير فيها مختارا ضمن النظام الذي يختاره سواء كان النظام شريعة الله أم غيرها ، ويمتنع عن ذلك وقت يشاء . وهذه الافعال لا دخل للقضاء بها ، لان الانسان هو الذي قام بها بارادته واختياره .

---

(١) ازمة الوحدة العربية ، عبد العزيز الاهواني : ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

أما الخاصيات المعينة التي أوجدها الله سبحانه في الاشياء ، وفي الغرائز ، وفي الحاجات العضوية التي في الانسان ، هي التي تسمى القدر ، وعلى الانسان ان يؤمن بان الذي قدر في الاشياء خواصها هو الله .

والله جعل الثواب للانسان على فعل الخير لانه اختار القيام بأوامر الله وجعل له العقاب على فعل الشر لانه اختار مخالفة أوامر الله . وعلى ذلك كان الانسان مسؤولا عن سعيه وكسبه .

ونحن نذكر الموت في هذا الموضع لانه قضاء أولا ، ولانه مرتبط بالرزق ثانيا . والسبب الوحيد للموت هو انتهاء الاجل . فاصابة أي انسان برصاصة في صدره هي حالة وليست سببا للموت . اذ لو كانت سببا لما تخلفت أبدا . فمجرد تخلفها ولو مرة واحدة يدل قطعا على انها ليست سببا . وقس على ذلك سائر الحالات التي يحصل فيها الموت عادة . ولم يستطع العقل أن يهتدي الى السبب الحقيقي للموت . والعلم به ناشىء عن اخبار الله سبحانه وتعالى ، وورد ذلك في آيات متعددة بأنه الاجل ، وان الله هو المميت ، وان الاجل اذا جاء ، جاء في حينه المحتوم فلا يقدم ولا يؤخر ، ولا يستطيع أي انسان أن يتوقى الموت ، أو يهرب منه مطلقا . وذلك مدرك بالمعاينة والمشاهدة .

أما الرزق فهو أعم من الملكية ، لان الرزق هو العطاء ، وأما الملكية فهي حيازة الشيء عن طريق شرعي . ومعنى ذلك ان الرزق يكون حلالا وحراما ، وكله يقال عنه رزق . وقد غلب على كثير من الناس الظن بأنهم هم الذين يرزقون أنفسهم ويعدون الاوضاع والحالات التي يحوزون فيها الثروة أسبابا للرزق ، وان كان بعض الناس يقول بلسانه ان الرزاق هو الله . فأسباب الرزق عند هؤلاء محسوسة ملموسة ، وهي الاوضاع التي تؤدي الى كسب المال . وقد وردت الايات الكثيرة والاحاديث النبوية الشريفة التي تدل بصراحة لا تقبل التأويل على أن الرزق من الله تعالى وحده وليس من الانسان .

وان الله سبحانه وتعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه ، أو انه فضل بعض الناس على بعض في الرزق . وهو سبحانه وتعالى يرزق الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ، لئلا يكون للكافر حجة على الله يوم القيامة . بل انه يرزق الحيوان والنبات. وقد يكون رزق المؤمن مضيقا ، ويكون رزق الكافر واسعا . لان الحياة الدنيا بمتاعها ونعيمها ليست بشيء اذا ما قيست بالحياة الاخرة .

وهناك فرق بين الحالة التي يتم فيها الرزق والسبب الذي يوصل اليه . فالحالات التي يأتي فيها الرزق لها أوضاع من شأنها أن توصل القائم بها اليه وليست موصلة للرزق حتما ، فقد تأتي الحالة ، ولا يأتي الرزق ، وقد يأتي من غير حصول حالة من الحالات ، فقد يشتغل الموظف ، مثلا ، طوال الشهر ، وفي ساعة قبض راتبه يسرق منه، أو يضيع أو يحجز . ففي مثل هذه الحوادث حصلت الحالة التي تأتي بالرزق ولم يحصل الرزق . وقد يرث الانسان أموالا طائلة من غير أن يسعى اليها ، وقد تأتيه هبة من جهة لا يفكر بها . ولكن ذلك لا يعني أن يقعد المسلم في بيته ولا يباشر الحالات التي يطلب بها الرزق .

وان لم يباشر الحالات التي يطلب بها الرزق فهو آثم . لان الرزق قضاء والسعي فرض على كل مسلم قادر على السعي . وقد جاء الاسلام فحث على مباشرة المسلم لهذه الحالات طلبا للرزق مع وجوب الاعتقاد بأنها ليست اسبابه، وان الرازق هو الله تعالى، لا هذه الحالات . وقد قال الله سبحانه وتعالى : (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) (١) . والرسول صلى الله عليه

وسلم يقول : (ما عال من اقتصد) . ويقول أيضا : (نعم المال الصالح للمرء الصالح) . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم انه أدخر طعاما لاهله . وهذا يدل على وجوب السعي للرزق ، وقد جعله الله فرضا على الرجال ، وحرم القعود عن السعي للرزق (٢) .

ويقول الفخر الرازي في تفسير قول الله تعالى : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير) (٣) : « وفي الاية مسائل....

المسألة الثانية : في بيان الوجه الذي لاجله كان التوسع موجبا للطغيان ذكروا فيه وجوها : (الاول) ان الله تعالى لو سوى في الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادما للبعض ، ولو صار الامر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح . (الثاني) : ان هذه الاية مختصة بالعرب ، فانه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من المطر ما يرويهم ومن الكلأ والعشب ما يشبعهم أقدموا على النهب والغارة . (الثالث) : ان الانسان متكبر بالطبع، فاذا وجد الغنى والقدرة عاد الى مقتضى خلقته الاصلية ، وهو التكبر ، واذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد الى الطاعة والتواضع » (٤) .

والذي يبدو أن المؤلف لكتاب ازمة الوحدة العربية قد أخطأ مرتين : الاولى : حين قاس أوضاع المسلمين في العصور الماضية على أوضاع المسلمين في مصر وسائر بلاد الاسلام في العصر الراهن . وتناسى أن المسلمين السابقين كانوا يطبقون الاسلام ويعيشونه واقعا عمليا ، وان المسلمين في القرن العشرين يطبق عليهم قهرا النظام الاقتصادي الراسمالي والنظام الاشتراكي في التركستان وغيرها .

والثانية : حين يعد ابا حيان التوحيدي وأمثاله نموذجا دقيقا على سائر المسلمين في السخط والتململ من مفهوم الرزق ، الذي يصبح الجاهل غنيا في ظله ، ويمسي الذكي محروما . وهذه التعميمات الفاسدة والقياس الشمولي سقطت اليه من الفكر الاشتراكي الماركسي الذي يقوم على التعميمات والفروض الخيالية، ومن استاذه طه حسين بطل التعميمات والقياس الشمولي في مصر ويبدو ذلك واضحا في كتاب طه حسين « الادب الجاهلي » وسائر كتبه .

---

(١) سورة الملك ، الآية ص ١٥ .
(٢) انظر كتاب : الاسلام وثقافة الانسان ، سميح عاطف الزين : ص ٧٧ ـ ٨٣ .
(٣) سورة الشورى ، الآية ص ٢٧ .
(٤) التفسير الكبير ، للفخر الرازي : ٢٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ .

وليس صحيحا أن مفهوم الرزق عند المسلمين كما بيناه سابقا يعطل خطر الانفجار الكامن في نفوسهم ، ويستل من قلوبهم قدرا غير قليل من السخط ، ويردهم الى شيء من التسليم والرضا بالواقع ما دامت أسبابه مجهولة أو منوطة بما هو فوق الطاقة البشرية ، بل العكس هو الصحيح . لان مفهوم الرزق عند المسلمين واضح ، وهو ان الرزق من الله تعالى وحده وليس من الانسان ، وان الله سبحانه وتعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ، أي انه فضل بعض الناس على بعض في الرزق، وانه يرزق الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ، وان على المسلم القادر أن يباشر الحالات التي يطلب بها الرزق ، لان الرزق قضاء والسعي فرض مع وجوب الاعتقاد بأن هذه الحالات ليست أسبابا للرزق ، لان السبب هو الله تعالى ، وان الله سبحانه لم يبسط الرزق لعباده جميعا مخافة البغي والطغيان في الارض ، وخراب العالم ، وتعطل المصالح . وهذه المفاهيم واضحة في أذهان المسلمين ، ويسيرون عليها في حياتهم .

اضف الى ذلك أن كل مسلم يؤمن بأن الموت هو انتهاء الاجل ، وانه لن يصيبه الا ما كتب الله له ، وان السجن قضاء ، وانه لا يجتمع جبن وايمان . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا يجتمع جبن وايمان) . أفبعد ذلك يأتي المؤلف ويقول ان فكرة الرزق المقسوم التي كان يؤمن بها الناس في تلك العصور ، حين يردون الرزق ، أو الغنى والفقر بعبارة أخرى ، الى مشيئة سماوية تضعف ازاءها أو تنعدم الارادة الانسانية والسعي البشري ؟! وقوله فكرة الرزق المقسوم خطأ صريح ، لان ذلك مفهوم عند المسلمين وليس فكرة وحسب . فهي من الافكار الاساسية ، لانها جزء من الايمان . وأفكار الاسلام مفاهيم وليست معلومات لمجرد المعرفة ، وكونها مفاهيم لها مدلولات واقعة في معترك الحياة .

وقول المؤلف : « ان فكرة الرزق المقسوم التي كان يؤمن بها الناس في تلك العصور» . يدل على ان هؤلاء الناس لا يؤمنون بها في العصر الراهن . وفي قوله هذا وقاحة شنيعة لا تصدر الا من متمركس . واذا كان المؤلف العبقري لا يؤمن بمفهوم الرزق عند المسلمين لانه ماركسي عباءة وراسمالي جوهرا فمعنى ذلك ان الناس ، أي المسلمين ، لا يؤمنون جميعا بمفهوم الرزق في هذا العصر مثل الاستاذ المؤلف .

ولو قال المؤلف : « ان بعض الناس (المسلمين) لا يؤمن بفكرة الرزق المقسوم في العصر الراهن لكان قوله صوابا » .

ومعلوم ان المسلم الذي لا يؤمن بمفهوم الرزق كما أوضحه الاسلام ليس مسلما .

وصحيح أن مفهوم الرزق لا يسير بعض المسلمين في حياتهم الراهنة مع انهم ينكرونه ولا يجحدونه شأنه في ذلك شأن سائر المفاهيم الاسلامية . فكثير من المسلمين اليوم لا يؤدي الصلوات المفروضة مع انه لا ينكرها ولا يكفر بها . ولذلك لا يسمى كافرا عند معظم الفقهاء . وسبب ذلك ضعف الايمان عند هؤلاء القوم .

وان مفهوم الرزق عند المسلمين في ظل مجتمع اسلامي تحكمه دولة الخلافة الاسلامية يفعل فعله الرائع في سلوك المسلمين عامة . فهم خير أمة أخرجت للناس لانهم يواظبون على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهم لا يسكتون على ضيم ، ولا يرضون بظالم

الحكام ، لان شعارهم الابدي : لا طاعة لمخلوقا في معصية الخالق ، ولا يظلمون غيرهم من اهل الدمه والمعاهدين والمستامنين . واذا كان المؤلف يرى اوضاع المسلمين اليوم على غير ما ذكرنا فلانهم لا يطبقون الاسلام على انفسهم ، ولا يشترونه للناس كافه . والدنب دنبهم وليس دنب الاسلام . ومن الظلم الفادح ان نقيس الاسلام على اوضاع المسلمين الراهنة .

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ان من أعظم الجهاد كلمة حق عندسلطان جائر) يدفع المسلمين دفعا الى رفض الظلم والعسف والذل .

وقول الله تعالى : (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) (١) واضح في نهي المسلمين عن الركون الى الظلم والظالمين مجرد الركون وهو الميل والسكن والاطمئنان .

وفي التاريخ الاسلامي الاف الشواهد على مواقف المسلمين ومنهم العلماء من الحكام، مع ايمانهم بمفهوم الرزق ، تبين صورا صادقة حية في محاسبة الحكام تزري بأقوال عبد العزيز الاهواني وتثبت بطلانها وفسادها .

.. كانت من جملة غنائم المسلمين، ابراد يمانية ، فقام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقسم هذه الغنائم بالعدل ، وقد أصابه منها برد ، كما أصاب ابنه عبد الله مثل ذلك ، كأي رجل من المسلمين . ولما كان سيدنا عمر بحاجة الى ثوب وهو الطويل في الجسم، فقد تبرع له عبد الله ببرده ، ليصنع منه ثوبا يكفيه ، ثم وقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله « أيها الناس ، اسمعوا واطيعوا .... » ، فوقف له سلمان الفارسي الصحابي الجليل ليحاسبه فقال له : « لا سمع لك علينا ولا طاعة » ، فقال سيدنا عمر . ولم ؟ قال سلمان : « من أين لك هذا الثوب وقد نالك برد واحد وأنت رجل طوال ؟ » فقال : « لا تعجل » ونادى « يا عبد الله » فلم يجبه أحد فقال : « يا عبد الله بن عمر » ، فقال : « لبيك يا أمير المؤمنين » ، قال : « ناشدتك الله البرد الذي ائتزرت أهو بردك ؟ » فقال : « اللهم نعم » ، قال سلمان : « الان مر نسمع ونطع » .

ولم يكن ذلك زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وحسب ، بل استمر ذلك مع المسلمين عبر العصور . فموقف العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء من الملك الصالح اسماعيل معروف عندما تحالف مع الصليبيين ليساعدوه على نجم الدين بن أيوب حاكم مصر .

ومرقف شيخ الاسلام أحمد بن تيمية الحراني من محاسبة غازان التتري ، وهو رابع ملك مسلم من التتار معروف كذلك عند المثقفين .

والمسلمون الاوائل يؤمنون بمفهوم الرزق في الاسلام وكذلك المعاصرون . ولكن ايمان كثير من المسلمين المعاصرين بهذا المفهوم فيه ضعف وغبش بسبب قيام الغربيين

---

(١) سورة هود ، الآية ص ١١٣ .

الصليبيين في هذا العصر بابعاد الاسلام عن معترك الحياة وجعله محصورا في العبادات وحسب ، أو ما يسمى بفصل الدين عن الحياة . والدليل على ان الامة الاسلامية أمة الارادة القوية والعمل الجادة والثورة على الظلم والظالمين انها قاومت هجمتين عاتيتين في وقت واحد ، هجمة الصليبيين من الغرب وهجمة المغول والتتار من الشرق بحيث لم تتعرض أمة أخرى غير الامة الاسلامية لمثل هاتين الهجمتين في تاريخ البشرية . وفي النهاية اندحرت الوحوش المهاجمة . وفي الحرب العالمية الثانية يهاجم الجيش النازي روسيا السوفياتية ، ويحتل كثيرا من أراضيها ومدنها ، في الوقت الذي نجد هذا الجيش النازي يقوم بعمليات حربية شاملة في أوروبا وأفريقيا . ويقف الغرب الرأسمالي مع روسيا الاشتراكية في محنتها ويحارب الجيش النازي في عدة جبهات . وتنهزم ألمانيا الهتلرية. وينتصر الغرب الرأسمالي وروسيا الاشتراكية في هذه الحرب الكونية . ونسمع بالبطولات الخارقة للعادة وأغاني المديح لصمود الروس في المدن التي احتلها الجيش الالماني .

والامة الاسلامية لم يقف أحد معها حين تصدت لحملات الصليبيين وغزوات المغول والتتار المتلاحقة . أي ان الشرق الاقصى والغرب كله كانا ضد هذه الامة التي ننتمي اليها .

وعندما يعاود المؤلف نقد مفهوم الرزق عند المسلمين يذكر قولا لابي يوسف صاحب كتاب الخراج ، يتحدث فيه عن الاسعار وواقع الرخص والغلاء .

ولكن المؤلف خلع النص الذي استشهد به عن سياقه العام ، واكتفى بايراد قول أبي يوسف في الاسعار والرخص والغلاء . ولذلك فان النص الذي استشهد به المؤلف مبتور .

وكتاب الخراج كتاب صنفه أبو يوسف قاضي القضاة في عهد هرون الرشيد أمير المؤمنين . وقد اقترح هرون الرشيد على أبي يوسف انشاء هذا الكتاب وتصنيفه ليكون معينا لهرون الرشيد وموضحا لتنظيم الخراج الذي هو مورد هام من موارد بيت المال في الدولة الاسلامية .

والموضوع الذي يتحدث عنه أبو يوسف هو ما ينبغي أن يعمل به في السواد «سواد العراق » من حيث الخراج . والخراج : ضريبة الارض النى فتحها المسلمون عنوة ، وتكون على غلة الارض . وتشبه الجزية التي تضرب على رقاب أهل الذمة . اما الارض التي يدخل أهلها في الاسلام بدون قتال فتسمى أرضا عشرية . ومعلوم أن أرض السواد خراجية لانها فتحت عنوة .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث عثمان بن حنيف الى أرض السواد ، فجعل حد الخراج كحد الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة . وقد جعل عمر بن الخطاب أرض السواد وغيره فيئا موقوفا على المسلمين ما تناسلوا ، ولم يجعلها غنيمة ، أي انه لم يخمسها ولم يقسمها ، بل تركها لاهلها يزرعونها ويؤدون الخراج ، ورقبة الارض ملك للدولة الاسلامية .

يقول ابو يوسف في موضوع خراج أرض السواد : « اما الوظيفة من الطعام ، فان كان رخيصا لم يكتف السلطان بالذي وظف عليهم ، ولم يطب نفسا بالحط عنهم ، ولم يقوم بذلك الجنود ، ولم تشحن به الثغور ، وان كان غاليا فاحشا لا يطيب السلطان نفسا بترك ما يستفضل اهل الخراج من ذلك . والرخص والغلاء بيد الله تعالى لا يقومان على أمر واحد وكذلك وظيفة الدراهم مع أشياء كثيرة تدخل في ذلك تفسيرها يطول . وليس للرخص والغلاء حد يعرف ولا يقام عليه ، انما هو أمر من السماء لا يدرى كيف هو . وليس الرخص من كثرة الطعام ولا غلاؤه من تلته ، انما ذلك أمر الله وقضاؤه . وقد يكون الطعام كثيرا غاليا ، وقد يكون تليلا رخيصا . . » (١) .

وان مفهوم ابي يوسف للرخص والغلاء في الاسعار مفهوم اسلامي .

روى الترمذي في جامعه : (عن انس قال : غلاء السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، سعر لنا ، فقال : ان الله هو المسعر القابض الباسط الرازق، واني لارجو ان القى ربي وليس احد منكم يطلبني بمظلمة في دمولا مال)، حديث حسن صحيح .

وابو يوسف صاحب كتاب الخراج يوضح لهرون الرشيد المصاعب والمخاطر التي تترتب على الدولة وعلى الذين يدفعون الخراج من جراء الاتفاق بين الدولة وبين اهل الخراج على مقدار معين من الغلة او المنتوجات الزراعية يؤدونها كل سنة الى الجباة. لان أسعار الغلال من حنطة وشعير ونخل وكرم غير ثابتة ، وليست بيد السلطان ولا بيد اهل الخراج . وهذا المقدار من الغلة او الطعام او المنتوجات الزراعية التي تنتجها أرض السواد ان صار سعره رخيصا بشكل فاحش يضرر السلطان وتضعف موارد بيت المال ، ولم يكتف السلطان بالمقدار الذي ترتب على اهل الخراج . وان طالب اهل الخراج السلطان بالحط عنهم من ذلك المقدار لم تطب نفسه بفعل ذلك ا لان أسعار ذلك المقدار رخيصة رخصا فاحشا .

وفي هذا الوضع يكون السلطان غير راض كما ان اهل الخراج غير راضين .

وان كانت أسعار المقدار من الغلة المترتبة عليهم غالية فاحشة لا يطيب السلطان نفسا بترك ما يتبقى لاهل الخراج من ذلك . لان الرخص والغلاء بيد الله تعالى لا يقومان على أمر واحد . وهو يقترح على هرون الرشيد ان ينظر الى واقع السوق في كل عام يؤدى فيه الخراج ، وان يراوح السلطان بين طريقة المقدار المترتب من الغلة وبين واقع الاسعار لتلك الغلة في كل عام . ويقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها عنت على اهل الخراج ، ولا يكون على الدولة اي مواردها ضرر من جراء ذلك التقويم .

اما المؤلف الاشتراكي الماركسي فينظر الى الثمن او السعر نظرة الرأسماليين فبحث العرض والطلب بحثان أساسيان في الاقتصاد عند الرأسماليين . والمراد بالعرض : عرض البضاعة في السوق . كما ان المراد بالطلب طلب السوق . وكما ان الطلب لا يمكن تعيينه من غير ذكر السعر فكذلك العرض .

(١) كتاب الخراج ،لابي يوسف يعقوب بن ابراهيم القاضي : ص ٤٨ ، ٤٩ .

اذا زاد السعر قل الطلب ، واذا قل السعر زاد الطلب . أما العرض فانه يتغير بتغير السعر ، وفي اتجاهه ، اي ان العرض يزداد بارتفاع السعر ويقل بهبوطه . وفي كلتا الحالتين يكون للسعر الاثر الاكبر في العرض والطلب ، اي يكون له الاثر الاكبر في الانتاج والاستهلاك .

والسعر عندهم هو الحافز الكبير على الانتاج . والسعر نفسه هو الذي يحقق التوازن بين الانتاج والاستهلاك ، وهو الذي يكون أداة الاتصال بين المنتج وبين المستهلك .

والسعر هو القاعدة التي يقوم عليها الاقتصاد في نظر الرأسماليين ، وهو حجر الزاوية في الاقتصاد عندهم .

والرأسماليون ينظرون الى الاقتصاد نظرة واحدة تشمل المادة الاقتصادية وكيفية حيازتها دون فصل بينهما ، ودون تمييز أحدهما عن الاخر ، اي ينظرون الى علم الاقتصاد والنظام الاقتصادي نظرة واحدة بدون تفريق ، مع ان هناك فرقا بين النظام الاقتصادي وبين علم الاقتصاد . فالنظام الاقتصادي هو الذي يبين توزيع الثروة وتملكها والتصرف بها ، وما شاكل ذلك اما علم الاقتصاد فانه يبحث في الانتاج وتحسينه وايجاد وسائله وتحسينها ، وهذا عالمي لدى الامم كافة لا يختص به مبدأ دون اخر . فالنظرة الى الملكية مثلا تختلف في النظام الرأسمالي عنها في النظام الاشتراكي وفي الاسلام بخلاف تحسين الانتاج فانه بحث واقعي ، والنظرة اليه علمية لا تختلف مهما اختلف الفهم . ولذلك كان أساس تكوين الاقتصاد في المبدأ الرأسمالي أساسا خاطئا .

وخلاصة الموقف أن النظام الاقتصادي الرأسمالي يقوم على المنفعة باعتبارها تشبع حاجة مادية فقط .

فالرأسمالي يغش حتى تربح تجارته ، واذا ربحت بالغش أصبح الغش مشروعا ، ولا يطعم الفقراء اجابة لامر الله بالصدقة ، وانما يطعمهم حتى لا يسرقوه .

هذه هي الافكار والنظم التي يتبجح بها المؤلف وينعي على أبي يوسف صاحب كتاب الخراج لانه لم يعرفها .

والرأسمالية تجعل زيادة الثروة أساس النظام ، وتترك للافراد حرية الملكية والعمل . والاشتراكية ، ومنها الشيوعية ، تقول بالغاء الملكية الغاء كليا او جزئيا وتجعل العمل هو الاساس ، وشعارها : « من لا يعمل لا يأكل » .

والاسلام يقول باباحة الملكية والعمل . وهناك فرق بين الاباحة وبين الحرية . والفرق بين قيمة الناتج وأجر العامل، وهو ما يسميه كارل ماركس بالقيمة الفائضة، يتكون منه الربح الذي يستأثر به الرأسمالي مع ان العدل يقضي ان يكون من نصيب العامل .

والحرب ستظل معلنة بين هاتين الطبقتين حتى يتلاءم الانتاج مع نظام الملكية ، اي حتى تتحول الملكية الى اشتراكية . وراي ماركس في نظرية القيمة مخالف للواقع .

فكون المصدر الوحيد لقيمة السلعة هو العمل المبذول في انتاجها يخالف الواقع ، اذ أن العمل المبذول مصدر من مصادر قيمة السلعة ، وليس المصدر الوحيد ، لان هناك

أشياء غير العمل تدخل في قيمة السلعة . فهناك المادة الخام التي جرى عليها العمل . وهناك الحاجه لمنفعه هذه السلعة ، وقد تكون منفعة هذه السلعه غير مطلوبة في السوق . وايضا فروسيا السوفياتية حين انتقلت الى الاشتراكية لم يكن ذلك نتيجة لتطور مادي ، ولا الى كفاح طبقات أدى الى تغيير نظام بنظام ، وانما وصلت للحكم جماعة عن طريق ثورة دموية ، ثم راحت تطبق أفكارها على الشعب ، وغيرت النظام ، وكذلك الحال في الصين الشعبية . فالسعر هو القاعدة أو حجر الزاوية الذي يقوم عليه الاقتصاد في نظر الرأسماليين .

والسعر لا يعول عليه في المجتمع الاشتراكي الماركسي لان كل وسائل الانتاج ملك للدولة .

وما يعانيه العالم من استعمار ومناطق نفوذ وغزو اقتصادي ما هو الا أثر من آثار الشركات الاحتكارية وجعل السعر وراء توزيع الثروة ، فتتجمع ثروات العالم على هذا الاساس لتصب في أيدي الاحتكارات الرأسمالية ، وذلك كله من جراء سوء القواعد التي نص عليها النظام الاقتصادي الرأسمالي .

واذا كانت الاشتراكية الماركسية قالت بالغاء الملكية الغاء كليا أو جزئيا ، وجعلت العمل هو الاساس أو الميزان للدخول ، ورفعت شعار : « من لا يعمل لا يأكل » فان النسبة بين ادنى دخل شهري وبين أعلى دخل شهري في الاتحاد السوفياتي الان كنسبة ١ الى ٤٠ . وهذا التفاوت في الدخول لا يوجد في أعتى البلاد الرأسمالية استغلالا للانسان . واذا أردت أن تعرف الترف والبذخ ورغد العيش الذي يمارسه قطاع محدود من أبناء الاتحاد السوفياتي فقم بزيارة تلك البلاد أو تم بزيارة بعض سفارات هذه الدولة ومراكزها الثقافية التابعة لتلك السفارات في كثير من بلاد العالم .

واذا كان الرخص والغلاء في الاسعار يقومان على العرض والطلب في النظام الاقتصادي الرأسمالي الفاسد فليس لهما حد يعرف ولا يقام عليه في النظام الاقتصادي في الاسلام الذي لا يعرف المؤلف عنه شيئا . لان الله هو المسعر القابض الباسط الرازق . فالامطار غزيرة في هذا العام ، وفي السنة القادمة تكون قليلة . ومعنى ذلك ان انتاج الارض في هذا العام جيد ، وفي السنة القادمة يكون الانتاج عزيزا . أما بالنسبة للاراضي التي تسقى بماء الانهار أو ما يسمى بالري الدائم فقد يستفحل خطر دودة القطن في هذا العام في مصر ولا يكون لدودة القطن أثر في العام القادم . فكيف يستطيع الانسان أن يسعر المنتوجات الزراعية وهو لا يستطيع أن يضبط عملية الانتاج؟!

ويجب أن نذكر هنا ان الاحتكار والربا والغبن والغش محرمة في الاسلام . والتجارة الخارجية أمر تشجعه الدولة الاسلامية .

وماذا يفعل الانسان ازاء هجوم الملايين من الجراد على الاراضي المزروعة بالنبات؟! وقديما قال العرب : جرد الجراد الارض يجردها جردا :

احتنك ما عليها من النبات فلم يبق منه شيئا ، وقيل : انما سمي جرادا بذلك .

ومنطقة أوكرانيا كانت تكفي العالم أشهرا من القمح في العهد القيصري .

وقد قام الاتحاد السوفياتي باستيراد القمح من أمريكا في السنوات الماضية . ولا ندري ما سبب ذلك بالضبط ، أمن فساد النظام الاشتراكي الماركسي ، أو من عوامل مناخية ، أو من كليهما معا ؟! فكثرة القمح في بلد ما حالة من الحالات في رخص سعره ، ولكن ذلك ليس قانونا ، كما أن قلته حالة من الحالات في غلاء سعره ، ولكن ذلك ليس قانونا . والبرازيل من أكبر البلدان المنتجة للبن ، وحتى تحافظ على أسعاره تتلف كميات كبيرة منه . فالبن كثير ، ولكنه بسبب هذا الاتلاف يكون سعره غاليا . وقد يكون انتاج البن قليلا في العام القادم ، وتقل حاجة الناس اليه في كثير من بلاد العالم ، فتضطر البرازيل الى تخفيض أسعاره ، فيصير قليلا رخيصا معا .

وأما قول المؤلف : « وقد اكتشفت اليوم في عصر العلم هذه القوانين ، وعرفت الاسباب ، وأصبح الناس يعرفون من أمرها ما لم يعرف أبو يوسف ، وأصبحوا يطلبون من الدولة الحديثة ما لم يطلبه أسلافهم من الدول القديمة ، وصاروا لا يرضون في هذا السبيل بغير الحلول الحاسمة . وقد سموا ما يريدونه بالاشتراكية ، وعرفوا لها مدلولا عمليا يتخذ فيه العمل ، والعمل وحده ، معيارا أو ميزانا للارزاق ، أو الدخول ، وان ما عداه استغلال لا يتفق مع العدالة والاخوة الانسانية . يستوي في ذلك أن يجيء هذا الاستغلال من ابناء الوطن في الداخل أو أعدائه في الخارج . ولن يلفتهم عن هذا البرهان بعدئذ تيقنته نفوسهم ، بلاغة القدماء ولا تفلسف المحدثين » فقول ساقط غير مستقيم وليس بشيء .

وان الحق لن ينقلب باطلا لان الناس مختلفون عليه ، والباطل لن يصير حقا لان الناس متفقون عليه . وصحيح انه اكتشفت في الحياة الاوروبية المعاصرة القواعد التي ينص عليها النظام الاقتصادي الرأسمالي مثل قاعدتي العرض والطلب وقاعدة السعر . وان الاسباب التي تتحكم في غلاء الاسعار ورخصها ليست هذه القواعد ، لانه ليس للرخص والغلاء حد يعرف ولا يقام عليه ، انما هو أمر من السماء لا يدرى كيف هو . والله هو المسعر الباسط القابض الرازق .

ولا يزال قول أبي يوسف صحيحا والى أن يرث الله الارض وما عليها . واذا كان الناس في عصرنا يعرفون من أمر هذه القواعد التي نص عليها النظام الاقتصادي الرأسمالي ما لم يعرف أبو يوسف فليس ذلك عيبا . وكيف يعاب الانسان على عدم معرفة الافكار التي كانت وبالا على البشرية ، وشرا مستطيرا على الانسانية ! أفكار تجعل الملايين خدما عند حفنة من الرأسماليين المحتكرين . الحمد لله الذي عصم أبا يوسف من معرفة هذه القواعد في النظام الاقتصادي الرأسمالي التي تجعل الانسان مثل أية سلعة يكون لسعرها الاثر الاكبر في العرض والطلب ، وبالتالي يكون له الاثر الاكبر في الانتاج والاستهلاك .

اضحك ان شئت أن تضحك ، وابك ان شئت أن تبكي عندما تعلم ان القواعد التي نص عليها النظام الاقتصادي الرأسمالي تجعل الانسان الذي كرمه الله بالعقل والخلقة ،

مثل البضاعة ، أو أية سلعة ، ثلاجة ، بطاطا ، سيارة ، بقرة ، حليب ، زيتون الى آخر تلك السلع . اذا زاد السعر قل الطلب ، واذا قل السعر زاد الطلب . واذا ارتفع السعر ازداد العرض ، واذا قل السعر هبط العرض . والناس في مفهوم المؤلف هم الراسماليون . وكيف يعرف أبو يوسف القاضي المسلم المستنير الذي عاش في القرن الثامن الميلادي أو الثاني الهجري القواعد التي نص عليها النظام الاقتصادي الراسمالي في القرن التاسع عشر والعشرين ؟!

أو أن المؤلف يعير ابا يوسف رحمه الله تعالى بأنه لا يعرف الشعار الاشتراكي الماركسي « الانسان حيوان منتج » . ولان الدولة تمتلك وسائل الانتاج الصناعي والزراعي ، اذن فالانسان يجب أن يكون مملوكا للدولة الاشتراكية الماركسية . والمؤلف يدعو بحرارة الى تطبيق الاشتراكية الماركسية في دولة الوحدة العربية . أي ان المؤلف يدعو الى أن يوكن مملوكا لدولة الوحدة العربية . والمملوك هو العبد الذي لا يملك حريته. وشهادة العبد لا تقبل عند أبي يوسف قاضي القضاة وعند كثير من فقهاء الاسلام .

وأما قوله : « وأصبح الناس يطلبون من الدولة الحديثة ما لم يطلبه أسلافهم من الدول القديمة ، وصاروا لا يرضون في هذا السبيل بغير الحلول الحاسمة . وقد سموا ما يريدونه بالاشتراكية » فيدل على أن المؤلف يتخبط في أفكاره ولا يعرف ما يريد أن يقوله . فالمبادىء في العالم ثلاثة لا رابع لها حتى الان ، وهي : الاسلام ، والراسمالية، والاشتراكية الماركسية .

والاسلام يبيح الملكية الفردية اباحة ويبيح العمل ضمن أحكام الشرع .

وهناك ملكية عامة مثل الماء والكلأ والنار ، وما يتفرع عنها في أيامنا . وفي الدولة الاسلامية يكون التعليم مجانا ، وكذلك التطبيب والعلاج .

والنظام الاقتصادي في الاسلام يدور على محور مفاده ازالة الفقر والقضاء عليه ؛ واتاحة الفرصة لجميع رعايا الدولة بتحقيق الغنى ضمن أحكام الشرع .

والزم معظم الفقهاء الدولة الاسلامية بتوفير الضروريات ، المأكل والملبس والمسكن، واضاف ابن حزم الظاهري : الزواج والركوبة .

وعلى الدولة ان توفر العمل لكل من يحمل التابعية ، فاذا عجزت تعطيه من بيت المال حتى يجد العمل .

وقد وفرت الدولة الاسلامية في فترة من فترات حكمها لكل ضرير قائدا يقوده مقابل أجر معلوم .

وملكية الارض في الاسلام تتحقق بالاقطاع والتحجير والاحياء ، كما تتحقق بالشراء وبالارث وبالهبة . قال صلى الله عليه وسلم : (من احيا أرضا ميتة فهي له) . واذا

ملكت الارض بسبب من الاسباب المذكورة أجبر مالك الارض على استغلالها ولا يسمح له بتعطيلها ، فاذا اهمل ذلك وعطل الارض ثلاث سنين نزعت منه جبرا واعطيت لغيره .

وفي الاسلام وقف الخليفة المهدي العباسي في محكمة المظالم لان واحدا من رعايا الدولة اقام عليه دعوى . والمسلمون كما يقول الحديث النبوي الشريف تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم .

وفي العلم والمعرفة نجد الامة الاسلامية أمة العلم والمعرفة عندما تحسن تطبيق الاسلام .

وقد سعد المسلمون بالاسلام وسعدت به البشرية طيلة اربعة عشر قرنا من الزمان حتى الغى الخلافة الاسلامية في استانبول مصطفى كمال سنة ١٩٢٤ .

أما الدولة في الفكر الراسمالي فهي شر لا بد منه . ومسوغ وجودها حماية أو تحقيق الحريات الاربع لكل فرد . أما الرعاية للمجتمع فهي غير صحيحة . ويكفي أن تنظر الى اية دولة تطبق النظام الراسمالي فانك ترى ان الحكم يسير وفقا لمصالح الطبقة الراسمالية المحتكرة . ومع ذلك تعمل الدول الراسمالية على ترقيع هذا النظام الفاسد باستصدار القوانين التي توفر بعض الرعاية للعمال والموظفين مثل التعويض عند العجز والمرض والتوفير والتقاعد وما شابه ذلك .

أما الدولة في الفكر الاشتراكي الماركسي اللينيني فيحكمها السكرتير الاول للحزب الشيوعي فعلا ، وهو يأتي على شكل هرمي . ويكفي أن يسترجع القارىء صورة ستالين ، فانه يدرك واقع الملايين من ضحاياه . وليس هناك نص من نصوص الفكر الاشتراكي الماركسي يمنع أن يتكرر ستالين جديد . وعندما ينقد أحد المفكرين السوفيات الواقع السوفياتي الراهن سياسيا وفكريا وثقافيا ، فان جزاءه أن ينفى الى مجاهل سبيريا أو يزج في مصحة عقلية أو يبعد من أراضي الاتحاد السوفياتي .

واذا كان العمل وحده يتخذ ميزانا أو معيار للدخول أو الرواتب في النظام الراسمالي والاشتراكي فان ذلك حالة من الحالات التي يتوصل بها الى الرزق وليس هو الرزق . وقد شرحنا ذلك آنفا مما يغني عن اعادته . ويجب أن نذكر ان كل من لا يتقيد بأفعاله بأحكام الاسلام أو الشرع فرزقه حرام ، وقد يكون واسعا ، وقد يكون ضيقا . أما اذا تقيدت أفعاله بأحكام الشرع فيكون رزقه حلالا ، وقد يكون واسعا ، وقد يكون ضيقا . والاسلام يجعل قيمة المنفعة من العمل معيارا أو ميزانا للاجر الذي يقوم به الاجراء في ظل الدولة الاسلامية . ويحدد الخبراء وأهل الاختصاص قيمة المنفعة من العمل . ولا يخضع ذلك للعرض والطلب ، لان ذلك يزري بانسانية الانسان .

ومما يثير العجب أن المؤلف يجعل الشرع الذي يقوم على القناعة العقلية الجازمة اليقينية ظنا او خطأ ، ويجعل الراسمالية والاشتراكية الماركسية التي تقوم على الظن والاهواء يقينا جازما !!

وفي هذا المقام أذكر قول الله سبحانه وتعالى : (.... فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال) .

وبعد ، فهذه هي الافكار أو النقاط الخمس التي ناقشتها وبينت وجه الحق فيها . وفي اعتقادي أن كتاب « أزمة الوحدة العربية » يقوم عليها . وان كان ذلك كذلك فاني اذهب الى القول بأن ما سجلته هو نقض لهذا الكتاب ، واتيان عليه من القواعد .

ويجب أن يعلم بأن ما قلته في هذه النقاط الخمس لا أريد به الطعن في شخص المؤلف، وانما أردت به وجه الحق والصواب .

وهذه النقاط الخمس هي قضية مصيرية كبرى في نظري ، فلا يجوز السكوت عنها .

والله الموفق للصواب . وله الحمد أولا واخرا .

المصادر والمراجع :

١ — أزمة الوحدة العربية ، للدكتور عبد العزيز الاهواني ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، أيار ١٩٧٢ .

٢ — النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي ، بقلم الاستاذ محمد احمد الغمراوي ، منشورات دار الحكمة ، ١٩٧٠ .

٣ — نقض الاشتراكية الماركسية ، للاستاذ غانم عبده ، دار الايمان ، بيروت ، ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م.

٤ — التفكير ، للاستاذ تقي الدين النبهاني ، صفر عام ١٣٩٣ هـ ، اذار عام ١٩٧٣م.

٥ — الاسلام وثقافة الانسان ، للاستاذ ، سميح عاطف الزين ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٩ هـ ، ١٩٧٠ م.

٦ — كتاب الخراج ، للقاضي أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري صاحب الامام أبي حنيفة ، نشرته المطبعة السلفية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٢ هـ .

مع كتاب تجديد

"الفكر العربي"

للدكتور

زكي نجيب محمود

مع كتاب تجديد الفكر العربي

للدكتور زكي نجيب محمود

يذكر الدكتور زكي نجيب محمود في تقديم هذا الكتاب أنه لم تكن قد أتيحت له في معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الامد ، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل ، فهو واحد من الوف المثقفين العرب ، الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي — قديم أو جديد — حتى سبقت الى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الانساني الذي لا فكر سواه ، لان عيونهم لم تفتح على غيره لتراه ، ولبثت هذه الحالة معه أعواما بعد أعوام : الفكر الاوروبي دراسته وهو طالب ، والفكر الاوروبي تدريسه وهو استاذ ، والفكر الاوروبي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ ، وكانت أسماء الاعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه الا أصداء مفككة متناثرة ، كالاشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين . ثم أخذته في أعوامه الاخيرة صحوة قلقة ، فلقد فوجىء وهو في أنضج سنيه ، بأن مشكلة المشكلات في حياتنا الثقافية الراهنة ليست هي : كم أخذنا من ثقافات الغرب وكم ينبغي لنا أن نزيد ، اذ لو كان الامر كذلك لهان ، فما علينا عندئذ الا أن نضاعف من سرعة المطابعونزيد من عدد المترجمين ، فاذا الثقافات الغربية قد رصت على رفوفنا بالالوف بعد أن كانت ترص بالمئين ، لكن لا ، ليست هذه هي المشكلة ، وانما المشكلة على الحقيقة هي : كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها ؟ انه لمحال يكون الطريق الى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والاصيل في تجاور ، بحيث نشير بأصابعنا الى رفوفنا فنقول : هذا هو شكسبير قائم الى جوار أبي العلاء ، فكيف اذن يكون الطريق ؟ استيقظ صاحب الكتاب بعد أن فات أوانه أو أوشك ، فاذا هو يحس الحيرة تؤرقه ، فطفق في بضعة الاعوام الاخيرة ، التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية ، يزدرد تراث ابائه ازدراد العجلان ، كأنه سائح مر بمدينة باريس ، وليس بين يديه الا يومان ، ولا بد له خلالهما أن يريح ضميره بزيارة اللوفر ، فراح يعدو من غرفة الى غرفة ، يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك ، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل ، هكذا أخذ صاحبنا — وما يزال — يعب صحائفالتراث عبا سريعا ، والسؤال ملء سمعه وبصره : كيف السبيل الى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حتى في عصرنا هذا ، بحيث يندمج فيها المنقول والاصيل في نظرة واحدة (١) ؟ ويقول المؤلف : « هكذا تعاورني أمل ويأس ، وذلك لانني لم اقع على المفتاح الذي أفتح به الابواب المغلقة ، بل كثيرا ما شككت بأن يكون السؤال المطروح نفسه سؤالا غير مشروع ، وان علة الحيرة كلها والاضطراب كله ، هي اننا نسألسؤالا هو بطبيعته لا يحتمل الجواب ؟ ...... وفجأة وجدت المفتاح الذي اهتدي به ، ولقد وجدته في عبارة قرأتها نقلا عن هربرت ريد ، اذ وجدته يقول : « انني لعلى علم انهناك

---

(١) تجديد الفكر العربي ، تقديم ، ص ٥ ، ٦ .

شيئا اسمه « التراث » ، ولكن قيمته عندي هي في كونه مجموعة من وسائل تقنيةيمكن أن نأخذها عن السلف لنستخدمها اليوم ونحن امنون بالنسبة الى ما استحدثناه من طرائق جديدة ؟ فمثلا هناك طريقة استخدمها السابقون في حزم الدريس ، وأخرى استخدموها في نظم المقطوعات الشعرية (السوناتا) ، ونستطيع أن نعلم هذهالطريقة أو تلك لمن شاء أن يتعلم ... وان الحالة التي يعانيها العالم اليوم لهي في رأيي كافية للدلالة على مدى ما تستطيعه الصور الفكرية التقليدية ـ كنيسة كانت أو أكاديمية ـ في حل مشكلاتنا ، وهي الصور التي يطالبوننا اليوم بأن نحيطها بالتبجيل والتقديس لانها هي التراث ... »

أقول انني وجدت في هذه العبارة مفتاحا للموقف كله ، فماذا عسانا أن نأخذ منتراث الاقدمين ؟ الجواب هو : نأخذ من تراث الاقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقا عمليا، فيضاف الى الطرائق الجديدة المستحدثة ، فكل طريقة العمل اصطنعها الاقدمونوجاءت طريقة جديدة أنجح منها ، كان لا بد من اطراح الطريقة القديمة ووضعها على رف الماضي الذي لا يعنى به الا المؤرخون ، بعبارة أخرى : ان الثقافة ـ ثقافة الاقدمين أو المعاصرين ـ هي طرائق عيش ، فاذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشناالراهن، أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث ، وأما ما لا ينفع نفعا عمليا تطبيقيا فهو الذي نتركه غير آسفين ، وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة الى ثقافة معاصرينا من أبناء أوروبا وأميركا » (١) .

والواقع أن الدكتور زكي نجيب محمود من أنصار الفلسفة الوضعية المنطقية .

وقد صنف ثلاثة كتب يشرح فيها الفلسفة الوضعية المنطقية ويوضحها . وهذه الكتب : المنطق الوضعي ، وخرافة الميتافيزيقا ، ونحو فلسفة علمية . ويبدو أنالدكتور زكي نجيب محمود مذهبا خاصا به في داخل المدرسة الوضعية المنطقية . وقد صرح لنا بهذا . وفهمنا من هذا التصريح انه يخالف « نوراث » و « همبل » و «كارناب » الذين ذهبوا الى أن الحق أو الحقيقة ، ليس في المنطق والرياضيات وحسب ، بل في العلوم التجريبية ايضا ، غير قائم على علاقة الجمل بوقائع الخارج ، بل قائم فقط في الاتساق بين القضية (الجملة) والمجموعة الرمزية التي توضع فيها وتكون جزءا منها. أما الدكتور زكي نجيب محمود فيأخذ بالرأي القائل بأن محك الصواب في العبارة اللغوية هو الخبرة الحسية . وقد بدأ للدكتور يحيى هويدي في بعض الاحيان ان زكي نجيب محمود متأثر بالاستاذ «آير» وبخاصة في كتابه «اللغة ، والصدق، والمنطق» (٢).

أما هربرت ريد الذي اعتمد على عبارته زكي نجيب محمود ووجد في تلك العبارة المفتاح الذي اهتدى به لحل قضية الثقافة العربية المعاصرة فهو مفكر انجليزيمعاصر. ولد بمقاطعة يوركشاير سنة ١٨٩٣ م. عني بالفنون الجميلة دراسة وتدريسافي الكليات والمعاهد . مؤلفاته كثيرة التنوع . فمنها دراسات في النقد الادبي ، ودراسة فلسفة الفن وعلم الجمال ، وله كتب ذات طابع سياسي ، وله دراسات تاريخية ونقدية عن

(١) تجديد الفكر العربي : ص ١٦ ـ ١٨ .
(٢) أنظر الفلسفة الوضعية المنطقية في الميزان ، يحيى هويدي : ص ٣٠ ، ٣١ . وانظر مثلا : نحو فلسفة علمية ، ذكي نجيب محمود : ص ١٨٣ ، ١٨٧ .

بعض المصورين، وله مجموعة من المقالات جمعت في كتاب بعنوان « فصول في النقد الادبي » . أما واقع فلسفة هربرت ريد الجمالية فتتبلور في أنها خضعت لكثير من التأثيرات الاجنبية ، فتأثر في مطلع حياته بتولستوي وبرجسون قبل أن يحتك احتكاكا مباشرا بفيلهلم فورنجر الذي ترجم له كتاب « مشكلة الشكل في الفن القوطي » . ووقع في تلك الفترة تحت تأثير علماء المان اخرين مثل ليبس . ثم جاءت المرحلة الحاسمة في تطور هربرت ريد الروحي ، فكان أن تأثر تأثرا عميقا بأبحاث كل من كونراد فيدلر وكاسيرر وسوزان لانجر . ولم يلبث ريد أن أقدم على دراسة فلسفة الظواهر أو « الفنومنولوجيا » فتأثر بفلسفة ماكس شيلر . وسرعان ما قادته هذه الدراسة الى الاهتمام بالفسفة الوجودية ، فقرأ اثار كيركجارد ، وهيدجر ، وسارتر ، ويسبرز . وحملته هذه الاهتمامات الجديدة الى الثورة على كل فلسفة وضعية أو علمية متطرفة، فهاجم بشدة مذاهب الوضعيين المنطقيين وغيرهم من أنصار الفلسفة العلمية . ودعا الى اقامة فلسفة جمالية تقوم على أسس وجودية ، ولكنه كان يتردد في تسمية فلسفته باسم الفلسفة الوجودية .

والملاحظ أن هذا المفكر قد اتخذ نقطة انطلاقه من دراسته للشعر ، ثم لم يلبث أن اهتم بدراسة التصوير والنحت ، وانتهى في خاتمة المطاف الى اقامة فلسفة عامة على دعامة من هذه الدراسات الجمالية (١) .

فالدكتور زكي نجيب محمود صاحب مذهب خاص في داخل المدرسة الوضعية المنطقية ، وعندما يهتدي الى المفتاح الذي يهتدي به لحل قضية الثقافة العربية المعاصرة نجده يستعير عبارة مفكر انجليزي هو هربرت ريد الذي هاجم بشدة مذاهب الوضعيين المنطقيين وغيرهم من أنصار الفلسفة العلمية !

ولا جدال في أن هذا تناقض واضح . والذي أوقع زكي نجيب محمود في هذا التناقض الفكري انه يحاول أن يخرج بموقف فكري يعتمد على التوفيق بين مذاهب فكرية وفنية متباينة . وقد وقف زكي نجيب محمود موقفا فنيا مماثلا لموقفه الفكري . فقد جعل زكي نجيب محمود طبيعة الفن قريبة من طبيعة اللعب . وهذه النظرية كان قد تبناها سلامة موسى القبطي واستقى بذورها من بعض المفكرين العربيين مثل شيلر ، وداروِن ، وهربرت اسبنسر .

وفي هذا الصدد يقول الدكتور زكريا ابراهيم : « ولا شك ان الدكتور زكي نجيب محمود ـ هو الاخر ـ قد استلهم في قوله بهذه النظرية بعض المفكرين الاجانب ،ولكننا نراه يحاول العمل على تجديدها والبحث عن حجج أخرى لتأييدها .... ولا شك أن الدكتور زكي نجيب محمود حينما قرب طبيعة الفن من طبيعة اللعب ، فانه لم يكن يقصد مطلقا الى الانتقاص من قيمة النشاط الفني ، أو النزول بالفن الى مستوى اللهو العاطل الذي لا طائل تحته ، وانما كان يرمي من وراء ذلك الى تأكيد الطابع التلقائي للنشاط الفني ، وبابراز الصبغة التكاملية للفاعلية الجمالية . ولكننا اذا سلمنا معه بأن الفن لعب ولهو ، فكيف يتفق هذا مع ما سبق له تقريره من أن الفن خلق وانشاء ؟

(١) انظر فلسفة الفن في الفكر المعاصر زكريا ابراهيم : ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢ .

وهل ننسى أن النشاط الفني عمل جدي ينطوي على الكثير من الجهد والتفكير والتنظيم ؟ » (١) .

وكذلك أوقع زكي نجيب محمود في هذا التناقض انه استعار وجهة نظر المفكرين الرأسماليين في اتخاذ الطريقة العلمية أساسا للتفكير ، وجعلها حكما في الحكم على الاشياء . فالغرب ، أوروبا ثم أميركا ولحقتها روسيا ، قد أوجد في أوروبا الانقلاب الصناعي ، ونجح في العلوم التجريبية نجاحا منقطع النظير ، وامتد سلطانه منذ القرن التاسع عشر حتى الان ، حتى شمل نفوذه جميع العالم ، فسمى أسلوب البحث في العلوم التجريبية طريقة علمية في التفكير ، فكان ما يسمى بالطريقة العلمية ، وصار ينادي بها أن تكون طريقة التفكير ، وجعلها أساسا للتفكير ، وقد أخذها علماء الشيوعية ، وساروا عليها في غير العلوم التجريبية ، كما ساروا عليها في العلوم التجريبية ، وكذلك ظل علماء اوروبا يسيرون عليها في العلوم التجريبية ، وسار على نهجهم علماء أميركا ، وقلدهم فيها سائر ابناء العالم من جراء سيطرة الغرب ونفوذه ثم نفوذ الاتحاد السوفياتي ، فطغت على الناس بشكل عام هذه الطريقة ، فكان من جراء ذلك أن وجدت في المجتمع في العالم الاسلامي كله قداسة للافكار العلمية وللطريقة العلمية . والطريقة العلمية مع انها طريقة صحيحة لا تكون الا في بحث المواد المحسوسة . والنتيجة التي يصل اليها الباحث على الطريقة العلمية هي مع تسميتها حقيقة علمية أو قانونا علميا ، فانها ليست قطعية وانما هي ظنية فيها قابلية الخطأ . وهي ليست أساسا في التفكير ، بل هي أسلوب دائم من أساليب التفكير ، وهي لا تطبق على كل أمر وانما تطبق في أمر واحد هو المادة المحسوسة لمعرفة حقيقتها عن طريق اجراء تجارب عليها ، ولا تكون الا في بحث المواد المحسوسة ، فهي خاصة بالعلوم التجريبية ولا تستعمل في غيرها .
وقد طبق علماء الغرب الطريقة العلمية على تصرفات الانسان واحواله ، وقاسوا الانسان على الاشياء التي تبحث في المختبر ، فخرجوا بنتائج بالغة الخطأ .

والامثلة على خطئهم كثيرة وموجودة في كل فكرة من أفكارهم وفي كل بحث من أبحاثهم . والطريقة التي يجب أن تكون هي الطريقة الإساسية ، إنما هي الطريقة العقلية في التفكير . وهي طريقة القرآن الكريم ، وبالتالي هي طريقة الاسلام (٢) .

والواقع ان الذي حكاه زكي نجيب محمود مأساة يعيشها جمهرة المثقفين العرب المسلمين ، فضلا عن كثرة كاثرة من مسلمة الاعاجم المثقفين . وواقع هذه المأساة تتمثل في أن الغرب الصليبي الكافر قد فرض على الامة الاسلامية فرضا ـ ومنها الشعب العربي ـ أفكاره الرأسمالية ومقاييسه في الحياة وأنظمته وثقافته منذ نهاية القرن التاسع عشر تقريبا وحتى يومنا هذا . وكان يستعين على تثبيت أفكاره وأنظمته وثقافته بجيوش المستبشرين والمستشرقين اولا ، وبجيوشه وبقوات احتلاله ثانيا . فالجيش البريطاني مثلا احتل مصر عام ١٨٨٢ م ولم يخرج منها الا عام ١٩٥٤ م. وقس على

(١) **فلسفة الفن في الفكر المعاصر ، زكريا ابراهيم : ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .**
(٢) **أنظر كتاب التفكير ، تقي الدين النبهاني : ص ٣٠ ـ ٥٦ .**

مصر سائر بلاد المسلمين . وقد وصل المسلمون منذ القرن التاسع عشر الى درجة فظيعة من الجهل بالاسلام حتى الغى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة الاسلامية في استانبول عام ١٩٢٤ ولم يتحرك المسلمون تحركا جادا يستحق الذكر نظرا لانحطاطهم الفكري بفعل الاساءة في تطبيق الاسلام . وبعد أن اطمأن الكافر المستعمر الى حكام من المسلمين يحرسون أفكاره وانظمته ومقاييسه في الحياة وثقافته خرج بجيوشه قبل سنوات معدودات . وقد فتح المسلمون عيونهم منذ أكثر من نصف قرن على النظام الرأسمالي في بلادهم تحميه حراب الكفار ، ونظرا لجهلهم بالاسلام الذي حسبوه شعائر وعبادات تؤدى وحسب صار كثير منهم وبخاصة المثقفين ـ مضبوعين بالثقافة الغربية . وظنوا ان هذه الثقافة والفكر الذي تربط به هذه الثقافة هي الثقافة الصحيحة الراقية وهو الفكر القويم . ولذلك نرى الالاف من ابناء المسلمين لا يتاح لهم بشكل جاد في معظم الاحوال التعرف على الافكار الاسلامية والثقافة الاسلامية المرتبطة بهذه الافكار . والمسلم المثقف يعيش منذ سنوات أزمة حادة وضياعا فكريا وثقافيا بدون شك . فهو لا يعرف شيئا عن الاسلام يستحق الذكر . وكيف يتأتى له ذلك والمدارس والجامعات في بلاد الاسلام ومنها البلاد العربية تسير حسب مخططات وضعها المبشرون والمستشرقون الكفار ؟! المثقف المسلم لا يعرف عن الاسلام في المدارس والجامعات الا شعائر وعبادات ، ولا يعرف عن تاريخ المسلمين الا قدراً باهتا ينفره من هذا التاريخ أحيانا . فحرب صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما تقدم له بصورة مشوهة فيستقر في ذهنه ان تاريخ المسلمين صراع بين القادة وذبح وقتل .

وهرون الرشيد لا يتصوره الا من خلال قصص الف ليلة وليلة . والسلطان عبد الحميد الثاني صور له أن زير نساء في قصر يلدز . وهكذا شوه تاريخنا تشويها فيه حقد شديد على الاسلام والمسلمين . ومن يرد تعرف الحقيقة من مصادرها الصحيحة يجد أن هرون الرشيد كان يحج عاما ويغزو عاما ويصلي في الليلة مائة ركعة . هكذا يقول الطبري . والسلطان عبد الحميد كان مخلصا للاسلام والمسلمين ، ولكن الماسونية التي تخدم اليهودي العالمية هي التي عزلته عن الخلافة وشوهت تاريخه . ويكفي أن يعلم القارىء ان الذي قرأ قرار العزل عن السلطان عبد الحميد هو عمانويل قراصوه اليهودي الماسوني نائب سالونيك في مجلس « المبعوثان » .

والمثقف الغربي وكذلك الماركسي لا يعيشان الضياع الفكري والحيرة الفكرية التي يعيشها زكي نجيب محمود وغيره من أبناء المسلمين المثقفين . لان الاول يعيش حياة فكرية وثقافية هي من صنع أجداده وابائه . ومع ذلك فانه يكتوي بنارها الان ، فتجد الانتحار والالاف من اللقطاء والهيبين الهائمين على وجوههم للخروج من كابوس هذه الحضارة التي تقوم على المنافع .

أما الثاني فانه يعيش حياة فكرية وثقافية مفروضة عليه بالحديد والنار من قبل حزب يسمى الحزب الشيوعي . واذا صاح أو تمرد فيكون مصيره مصير بلاد المجر وتشيكوسلوفاكيا . وهناك فرق بين العلم والفكر . فالعلم عام وواحد في كل بلاد العالم . فدرجة غليان الماء في موسكو مثلا هي درجة غليان الماء في نيويورك . ولكن الفكر والنظام والثقافة في موسكو هي غير الفكر والنظام والثقافة في نيويورك . والمثقف الغربي أول ما يتثقف بثقافته الغربية التي هي عبارة عن معارف وفنون ترتبط بأفكاره الرأسمالية التي تقوم على فصل الدين عن الحياة .

والمثقف الشيوعي يتثقف بثقافته الشيوعية التي هي عبارة عن معارف وفنون ترتبط بالافكار الماركسية اللينينية التي تقوم على أن الكون مادة وحسب . أي ان هذا الكون ليس له خالق ، وبالتالي فان المادة هي التي تفرض الفكر ، والتطور عبارة عن نضال المتضادات . ولا تسمح الدولة هناك بتسرب أية أفكار أو ثقافات أخرى الى البلاد التي يهيمن عليها النظام الشيوعي . أما المثقف المسلم ومنه العربي فانه يتثقف بثقافة اسلامية وضعها له المستعمرون مع التركيز على فصل الدين عن الحياة . أليس غريبا أن يقضي الدكتور زكي نجيب محمود ، ومثله الالاف المؤلفة من أبناء المسلمين ، معظم سني حياته منشغلا بدراسة الفكر الغربي والمنطق الوضعي والثقافة الغربية ، ويأتي في أواخر حياته ليفتح عينيه على صفحات من تراثنا وفكرنا ؟! أليس هذا تنكر واهمالا لتراثنا وفكرنا ؟! أليس حراما أن يقضي معظم عمره بعيدا عن تراث أمته ، ثم يأتي في أواخر حياته ليزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان كأنه سائح مر بمدينة باريس ، وليس بين يديه الا يومان ، ولا بد له خلالهما أن يريح ضميره بزيارة اللوفر ، فراح يعدو من غرفة الى غرفة ، يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك ، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل ؟! وقد تحول التراث الاسلامي عند زكي نجيب محمود الى شيء كمالي أو هامشي مثل زيارة متحف اللوفر في باريس . يا للفجيعة ! ومن الطبيعي أن ينظر زكي نجيب محمود الى تراث أمته بعقلية غربية وبذوق عربي لأنه أسس على ذلك . وعندما يجد المفتاح الذي يفتح به الابواب المغلقة لا يجده الا في عبارة قرأها نقلا عن هربرت ريد ، ورأى الدكتور زكي نجيب محمود أن ثقافة الاقدمين أو المعاصرين طرائق عيش، فاذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن أخذناها ، وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث ، وأما ما لا ينفع نفعا عمليا تطبيقيا فهو الذي نتركه غير آسفين، وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة الى ثقافة معاصرينا من أبناء أوروبا وأميركا .

والواقع أن المفتاح الذي وجده زكي نجيب محمود مفتاح غير مناسب وغير دقيق ، لانه لا يرى فرقا بين العلم وبين الفكر والثقافة . والمسلمون خلفوا لنا أفكارا وثقافة . والفكر الاسلامي يتمثل في الفقه وعلم الكلام . والثقافة الاسلامية تتمثل في جميع المعارف التي تدور حول الاسلام ، وتشتمل على اللغة العربية بكل علومها والدراسات القرآنية والحديثية وتاريخ المسلمين ومباحث علم الكلام وغير ذلك . وخلف لنا الاقدمون حضارة تقوم على الاسلام وحدة . وهذه كلها لا يجوز لاي مسلم أن يترك شيئا منها لانها جميعها ترتبط بالاسلام وتقوم عليه . أما أخطاء المعتزلة في منهجهم عندما انتفعوا بالثقافة اليونانية انتفاعا فلا بأس بالتخلي عنها لانها تحمل عروقا وثنية كقولهم : يجب على الله الا يفعل الا الاصلح . وما عدا ذلك فهو أفكار اسلامية يجب على كل مسلم التمسك بها لانها أساس في شخصيته . وقس على ذلك أفكار الصوفية . ويجب على كل مسلم أن يعلي من شأن أفكار أهل السنة أولا ، ويتثقف بأفكار المعتزلة والصوفية ثانيا بعد ان يطرح منهما الجذور الوثنية والخربشات الفكرية . ولا بأس عليه بعد ذلك أن يدرس الافكار والثقافات الاجنبية قديمة أو حديثة لكي ينقضها ويظهر تهافتها وعوارها وفسادها . أما العلم الذي يعتمد على الملاحظة والاستنتاج فان الاسلام يبيح أخذه عن جميع الشعوب الا اذا كان مخالفا للاسلام مثل فن النحت والتماثيل . ونحن لا نقول بأن يستمسك المسلم بالمحراث ويترك التراكتور مثلا ، ولا نقول بأن يستمسك المسلم بالجمل والحصان ويترك الطائرة والدبابة ، لان هذه كلها نتجت عن علم ، ويجوز للامة

الاسلامية أن تأخذها عن أي شعب أو اية أمة ولا اثر لها على عقيدتها وثقافتها فالمسلم يبقى مسلما عندما يركب الطائرة ، والشيوعي يبقى شيوعيا عندما يركب الطائره . ان لينين عندما نقل الفكر الماركسي سجله باللغة الروسية القيصرية مع انه قام بتحطيم الاوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت في العهد القيصري . وانا لا أفهم ماذا يعنيه الدكتور زكي نجيب محمود بعنوان كتابه « تجديد الفكر العربي » . اي فكر عربي ؟ هل يقصد تقاليد الجاهليين وعاداتهم ؟ أم انه الفكر الاسلامي ؟ واذا كان القرآن الكريم نزل بلغة الضاد فلا يعني انه صار فكرا عربيا . واذا كانت الثقافة الاسلامية كتبت بالعربية فلان هذه اللغة هي لغة القرآن الكريم كتاب الاسلام الاول هي لغة الحديث النبوي الشريف كتاب الاسلام الثاني . والعرب هم سور الاسلام وسياجه ، وهم الذين نشروه الى أهل الارض . واذا كان يعني الفكر العربي الاشتراكية العربية أو الاسلامية ، فان العرب لم يعرفوا الاشتراكية في جاهليتهم ، والاسلام نظام متكامل قائم برأسه ليس فيه أشتراكية ولا ديموقراطية .

وأما قول زكي نجيب محمود : « ثم ما الذي نأخذه وما الذي نتركه من هذه الثقافة الجديدة التي تهب علينا ريحها من أوروبا وأميركا كأنها الاعاصير العاتية ؟ ثم هل في مستطاعنا أن نقف منها هذه الوقفة التي تنتقي وتختار ، وبعد ذلك كيف ننسج الخيوط التي استللناها من قماشة التراث ، مع الخيوط التي انتقيناها من قماشة الثقافة الاوروبية والاميركية ، كيف ننسج هذه الخيوط مع تلك في رقعة واحدة ، لحمتها من هنا وسداها من هناك ، فاذا هو نسيج عربي ومعاصر » (١) فغير مستقيم ومصادرة على المطلوب كما يقول المناطقة . لان قماشة التراث تختلف كل الاختلاف عن قماشة الثقافة الاوروبية والاميركية فلا يمكن الجميع بينهما في رقعة واحدة . الحضارة والافكار والثقافة خاصة والعلم عام . تراث المسلمين يقوم على الاسلام ، والثقافة الاوروبية والاميركية مبنية على الفكر الراسمالي الذي يقوم على فصل الدين عن الحياة ، ومنه الايمان بالافكار الديموقراطية التي أنتجت الحريات الاربع ، حرية الشخصية ، وحرية الرأي ، وحرية الملك ، وحرية العقيدة . وشتان بين الاسلام وبين الفكر الرأسمالي الافكار الديموقراطية التي يؤمن بها الاوروبيون والاميركيون ويطبقونها على أنفسهم هي أفكار قديمة وجدت عند الاغريق وطبقت في المدن اليونانية . فبأي مسوغ عقلي يدعونا زكي نجيب محمود الى الاخذ بهذه الافكار لانها معاصرة وحسب مع انها افكار قديمة ؟! ألانها أفكار غالبة مسيطرة وتتبناها دول كبرى ؟! وهل غلبة أفكار معينة وهيمنتها وسيطرتها على العالم تعني انها أفكار صحيحة وراقية ؟! صحيح ان المغلوب مولع بتقليد الغالب في معظم الاحيان في زيه ونحلته وأفكاره وعاداته كما يقول ابن خلدون رحمه الله . والدكتور زكي نجيب محمود في موقفه هذا لا يختلف عن موقف أصحاب الشعر الحر ومؤيديه اذ يسوغون ميولهم ومساندتهم لهذا الشعر الذي يقوم على التفعيلة بأنهم يريدون أن يعيشوا عصرهم ، ومع ذلك تتكرر في شعرهم الاقانيم الثلاثة والخطيئة والصلب والفداء وهي افكار قديمة . الشمس قديمة أيها الاستاذ الكريم . والكواكب قديمة . وقوانين الاشياء قديمة . والحروب العالمية فكرة معاصرة ، ونوادي العراة في أوروبا ممارسة معاصرة ، واقامة ما يسمى بدولة اسرائيل في فلسطين عمل

---

(١) تجديد الفكر العربي ، زكي نجيب محمود : ص ١٤ .

معاصر ، واختطاف الطائرات بما فيها من شباب وشيوخ وأطفال أبرياء عمل معاصر. فهل تستطيع أن تصف هذه الافكار والاعمال المعاصرة بالرقي والتقدم والنهوض عند المعاصرين من البشر ؟

الافكار والاعمال الراقية هي راقية لذاتها بغض النظر عن قدمها أو معاصرتها . والافكار والاعمال المنحطة هي منحطة لذاتها بغض النظر عن قدمها أو حداثتها . ولقد أدرك طه حسين عميد الادب العربي ، بفعل قناعته التامة بالفكر الراسمالي والثقافة الغربية وبخاصة الثقافة الفرنسية ، أن نسج خيوط من تراثنا مع خيوط من قماشة الثقافة الاوروبية والاميركية عمل عديم الجدوى اذ صرح تصريحا في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » بضرورة الايغال والفناء في الحضارة الغربية خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب . ومن الجائز ان ينتفع المسلمون بالتشبيهات والاستعارات عند الامم الاخرى في انتاجهم الادبي بشرط أن تحمل جذورا فكرية تخالف الاسلام أو تناقضه .

قال صلى الله عليه وسلم : (من لتركبن سننن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتهم وحتى لو أن أحدهم جامع امراته بالطريق لفعلتموه) . وان الدكتور زكي نجيب محمود في معالجاته لقضية الثقافة العربية المعاصرة لا يحس بكرامة الذات ولا بكرامة الامة التي ينتمي اليها . وتفكيره غير جاد وغير منتج ، وان شئت فقل انه العقم في التفكير ، بل أسوأ من العقم . وهو مصبوغ بفكرة التفوق العلمي في الغرب . وحسب أن التفوق العلمي ينتج عنه تفوق فكري وثقافي . ونسي أن التفوق العلمي شيء والتفوق والرقي الفكري والثقافي شيء اخر . وواضح أن زكي نجيب محمود يقوم في كتابه هذا بعملية توفيق بين التراث العربي الاسلامي وبين الافكار والثقافة الغربية الرأسمالية .

بل اين موقف زكي نجيب محمود من موقف الوزير لسان الدين بن الخطيب الاندلسي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ـــ ١٣٧٥ هـ ازاء الافكار والثقافة الاسلامية والافكار والثقافة غير الاسلامية في الوصية التي أوصى بها أولاده رحمه الله تعالى ، يقول لسان الدين بن الخطيب : « ..... وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجم بمنابتها المريعة (١) ، من علوم لسان لا تستغرق الاعمار فصولها ، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها ، فانما هي آلات لغير ، وأسباب الى خير منها وخير ، فمن كان قابلا للازدياد ، والفى فهمه ذا انقياد ، فليخص تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحة من سقيمه ، ثم الشروع في اصول الفقه فهو العلم العظيم المنة (٢) ، المهدي كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة ، والتدرب في طرق النظر وتصحيح الادلة ، وهذه هي الغاية القصوى في الملة ، ومن قصر أدراكه عن هذا المرمى ، وتقاعد عن التي هي أسمى ، فليرو الحديث بعد تجويه الكتاب واحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب امامه ، واياكم والعلوم القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يفيد الا تشكيكا ، ورأيا ركيكا ، ولا يثمر في العاجلة الا اقتحام العيون ، وتطريق الظنون ، وتطوق الاحتقار ، وسمة الصغار ، وخمول الاقدار ، والخسف من بعد الابدار ، وجاة الشريعة أغرق في الاعتدال ، وأوفق من قطع العمر في الجدال ، هذا ابن

(١) المريعة : الخصيبة . (٢) المنة : الاحسان والانعام .

رشد قاضي المصر ومفتيه ، وملتمس الرشد وموليه ، عادت عليه بالسخطة الشنيعة، وهو امام الشريعة ، فلا سبيل الى اقتحامها ، والتورط في ازدحامها ، ولا تخلطوا جامكم (١) بجامها ، الا ما كان من حساب ومساحة ، وما يعود بجدوى فلاحة ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمحجور (٢) ، وضرم مسجور (٣)، وممقوت مهجور .... » (٤) . فها هو ذا الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي سبق زكي نجيب محمود بستة قرون تقريبا ، وشهد سقوط الدويلات الاسلامية في الاندلس بيد الاسبان الافرنج الكاثوليك ، يوصي أولاده بالعكوف على دراسة الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية بكل فروعها ، ويحذرهم من دراسة العلوم القديمة وبخاصة الفلسفة الاغريقة التي تورط ابن رشد القرطبي في دراستها وشرحها والاعجاب بها ، ولحق بسبب ذلك بالكفار ، ويستثني لسان الدين من ذلك دراسة الحساب والهندسة والزراعة والطب لانها علوم تجريبية ، ولا بأس على المسلم من دراستها وتدريسها والتخصص فيها . أرأيت قماشة لسان الدين بن الخطيب الفكرية والثقافية المحددة الواضحة ؟ وهي تختلف عن قماشتك الفكرية والثقافية المقترحة التي أستطيع أن أصفها بالقماشة « فرانكوآراب » . قماشة لسان الدين الفكرية والثقافة قماشة اسلامية خالصة ، وهي تدل على الاعتزاز بكرامة الذات وكرامة الامة . أما قماشتك الفكرية والثقافية المقترحة فتدل على الانهزام الفكري والانضباع بحضارة الغرب وأفكاره وثقافاته . وهي قماشة لن ترضي المخلصين الواعين من العرب ولن ترضي المفكرين الاوروبيين والاميركيين . قال الله تعالى : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير) (٥) . خفض عليك ، أيها السامع ، فان الخطأ كثير غامر ، ومستول غالب ، والصواب قليل خاص ، ومقموع مستخف ، فوجه اللائمة الى أهلها ، والزمها من هو أحق بها ، فالصواب اليوم غريب ، وصاحبه مجهول ، فالعجب ممن يصيب وهو مغمور ، ويقول وهو ممنوع ، فان صرت عونا عليه مع الزمان قتلته ، وان أمسكت عنه فقد رفدته ، ولسنا نريد منك النصرة ولا المعونة ولا التأنيس ولا التعزية ، وكيف أطلب منك ما قد انقطع سببه واجتث أصله ؟ وقد كان يقال : « من طلب العلم وجده » ، هذا في الدهر الصالح دون الفاسد ، فان أنصفت فقد أغربت ، وان جرت فلم تعد ما عليه الزمان ! وهب الله لنا ولك الانصاف ، وأعاذنا واياك من الظلم ، والحمد لله كما هو أهله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ان الثقافة العربية المقترحة هي ثقافة منبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

وانني لم أرد أن أتتبع الفساد الفكري والثقافي الذي بثه زكي نجيب محمود في تضاعيف كتابه « تجديد الفكر العربي » . لانني اكتفيت ببيان فساد الفكرة الاساسية التي بنى عليها كتابه . وما بني على فاسد فهو فاسد . ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق .

(١) الجام : اناء من فضة .
(٢) محجود : ممنوع .
(٣) ضرم مسجود : نار مشتعلة ممتلئة باللهب ، والمراد عذاب جهنم .
(٤) نفح الطيب ، للمقري التلمساني : ١٠ ــ ٢٤٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ص ١٢٠ .

المصادر والمراجع

١ ـ تجديد الفكر العربي ، الدكتور زكي نجيب محمود ، دار الشروق ،بيروت ،١٩٧١

٢ ـ نحو فلسفة علمية ، الدكتور زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشـــر ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٨ .

٣ ـ الفلسفة الوضعية المنطقية في الميزان ، الدكتور يحيى هويدي ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ١٩٧٢ .

٤ ـ فلسفة الفن في الفكر المعاصر ، الدكتور زكريا ابراهيم ، نشر مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٥ ـ كتاب التفكير ، للاستاذ تقي الدين النبهانـــي .

٦ ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، لاحمد بن محمد المقري التلمساني ، المجلد العاشر ، دار الكتاب العربي ، بيروت .